

خمرة الحان ورنة الألحان

شرح رسالة الشيخ أرسلان

تأليف

الشيخ عبد الغني بن إسماعيل النابلسي

المتوفى سنة ١١٤٣هـ

ضبطه وصححه ووضع حواشيه

الشيخ عبد الوارث محمد علي





منشورات

محمد علي بيضون

لنشر كتب السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

خمرة الحان
ورنة الألحان

شرح رسالة الشيخ أرسلان

تأليف

الشيخ عبد الغني بن إسماعيل النابلسي

المتوفى سنة ١١٤٣هـ

ضبطه وصححه ووضع حواشيه

الشيخ عبد الوارث محمد علي

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان



الطبعة الأولى
١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان
رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٣٧٨٥٤٢ (٩٦١١)
صندوق بريد: ١١-٩٤٢٤ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel & Fax: 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ère Etage
Tel. & Fax: 00 (961 1) 37 85 42 - 36 61 35 - 36 43 98
B.P. 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3014-5



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ترجمة صاحب متن الرسالة[1]

هو الشيخ أرسلان بن يعقوب بن عبد الله بن عبد الرحمن الجعبري. أحد الزهّاد الصالحين المشهورين، من أهل دمشق، وقبره فيها معروف. ويقال له: الشيخ «رسلان» تخفيفاً، وكذا سماه الشعراني. توفي سنة ٦٩٩هـ (١٣٠٠م).

ترجمة صاحب الشرح[2]

هو عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي. شاعر، عالم بالدين والأدب، مكثر من التصنيف، متصوف. ولد بدمشق سنة ١٠٥٠هـ، ونشأ بها، ورحل إلى بغداد، وعاد إلى سورية، فتنقل في فلسطين ولبنان، وسافر إلى مصر والحجاز، واستقر بدمشق وتوفي بها سنة ١١٤٣هـ.

له مصنفات كثيرة جداً، ذكر بعضها الزركلي في الأعلام، فلتُراجع.

(١) انظر الأعلام للزركلي (١/ ٢٨٨).
(٢) انظر الأعلام للزركلي (٤/ ٣٢، ٣٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله الذي طهّر قلوب أوليائه بمياه اليقين من دنس الأغيار، ورفع عن وجوه عقولهم قناع الغفلة والاغترار، وألبسهم حلل المعرفة والاعتبار، وما لبس عليهم آياته البينات في الليل والنهار، والصلاة والسلام على مفتاح خزانة الغيب المطلق. وكشف أسرار العالم المغلق، نبينا ورسولنا من حضرة الحق محمد المختار قطب حركة الأدوار وعلى آله الهادين، وعلى أصحابه والتابعين إلى يوم الدين.

(أما بعد) فيقول أسير الذنوب، وإناء النقائص والعيوب، عبد الغني بن إسماعيل بن النابلسي القادري طريقة النقشبندي حقيقة، غلب الله تعالى على ذاته بذاته، وعوضه عن صفاته بصفاته.

هذا شرح أمطرته سموات إلهامي، وفاضت به عليّ في حضرة فتحي بحار النجلي السامي، وصنعته للرسالة الشريفة، بل الجوهرة المنيفة، التي قذف بها بحر الفيض الأقدس، في العالم الأنفس، على لسان الأمجد الأفخم، والضرغام الأعظم، زبدة الأولياء، وخلاصة الأصفياء، بركة الإنس والجان، سيدي الشيخ أرسلان، المنسوب إلى دمشق الشام، لكونه نشأ فيها ومات بها عليه رحمة الله الملك العلام، فيالها من رسالة مشمولة بالأنظار الإلٰهية، معطرة بالأنفاس الطيبة والنفحات القدسية، تتألق بروق المعارف من مطالع أفلاكها، وتتناثر درر اللطائف من قلائد أسلاكها، تنفح في رياضها كمائم القبول، فليس من العجائب أني أنشد في وصفها وأقول:

عن أرسلانَ جاءَ علمُ الحقائقِ   حيثُ أهدى رسالةً للخلائقِ

وسقانا بكأسه منه صرفاً   فسكرنا بسائغِ الشُّربِ رائقِ

كلّ حرفٍ منها يُشيرُ لمعنى سائق نحو ذروةِ المجدِ شائق

وعليها طلاوةٌ وبهاءٌ حيث حازت أسرار كل الطرائق

نفع الله ربنا بهداها في طروسٍ كأنهنّ حدائق

كلمات قد أزهرت بمعانٍ كل من رامها لقطع العلائق

وعلينا أعاد من بركات الشيخ ما ساق للحقيقة سائق

فدونك شرحاً لها يفصح بمعونة الله تعالى عن المرام وينادي على أبواب جنانها بعد الفتح ادخلوها بسلام، وقد سميته «**خمرة الحان ورنة الألحان في شرح رسالة الشيخ أرسلان**» والله سبحانه وتعالى ولي الهداية ومنه التوفيق والعناية وهو حسبي ونِعم الوكيل والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

مقدمة الكتاب

اعلم أولاً علّمك الله تعالى كل خير، وحفظك من الزّلل في كل وقوف وسير إن الشرك بالله تعالى نعوذُ بالله تعالى منه من أقبح الذنوب، وأخبث العيوب، لا يغفره الله تعالى أبداً وإن غفر ما سواه من المعاصي يوم الأخذ بالنواصي. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: ٣١] وحكى تعالى عن لقمان عليه السلام أنه قال لابنه وهو يعظه: «يا بني لا تُشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم»، وقال تعالى: ﴿مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ. . .﴾ الآية [المائدة: ٧٢] وهذا الشرك المذكور في هذه الآيات مطلق من غير تقييد بشرك دون شرك فيشمل الشرك الجلي والشرك الخفي إذ النوعان شرك محقق سواء كان جلياً واضحاً أو خفياً مكتوماً فإنْ اعتبرنا في الشرك الجلي ظهوره لصاحبه وفي الخفي خفاؤه عن صاحبه فإن كل شرك في الأرض كذلك لأن المشركين لا يعلمون أنهم مشركون بالله تعالى وإن عبدوا معه آلهة أخرى لتعللهم بأنهم وجدوا على ذلك آبائهم أو قصدهم أن تقربهم تلك الآلهة إلى الله زلفى كما حكى الله تعالى عنهم في القرآن العظيم فهم مشركون ولا يعلمون أنهم مشركون وإن اعتبرنا في الشرك الجلي ظهوره لغير صاحبه وفي الخفي خفاؤه عن صاحبه فلا فرق حينئذ بين الجلي والخفي لأنَّ الخفي ظاهرٌ عند غير صاحبه أيضاً فالشرك عند الله تعالى قسم واحد وإن انقسم على نوعين عند المتكلمين. قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠]. والعبادة اعتقاد وقول وعمل وأحد نكرة وقعت في سياق النهي فتعم كل معقول ومحسوس فتشمل الشرك الجلي والخفي واعلم أن الشرك الجلي هو أن يظهر للعبد أو لغيره اعتقاد أن مع الله رباً آخر يستحق العبادة من الخلق أو مع الله تعالى غيره موصوفاً بصفة مثل صفاته تعالى أو فعل له كأفعاله تعالى أو اسم كأسمائه أو حكم كأحكامه والشرك الخفي هو خفاء شيء من ذلك عن العبد وهو فيه بسبب استيلاء الغفلة على قلبه فترى الغافل عن معرفة نفسه جازماً بأنه مشارك لله تعالى في الوجود وفي جميع الصفات التي منها السمع

والبصر والعلم والحياة والقدرة والإرادة وغير ذلك وفي جميع الأسماء التي منها الحكيم والكريم واللطيف والعليم إلى آخره وفي جميع الأفعال كالإيجاد للعبادات والإعدام للمخالفات ونحو ذلك وفي جميع الأحكام كالجزم بالحرام والحلال على الأمور الداخلة بانفرادها وتشخصها تحت أحكام القرآن والسنة ومع ذلك هو غافل عما هو فيه غير منتبه لأمره قاطع بأنه موجود آخر مع الله تعالى موصوف بأوصاف مسمى بأسامي له أفعال وأحكام تصدر منه بحيث أنه إذا انتبه لما ذكرناه فيه وأنصف في نفسه بنفسه استيقظ لذلك ونسب ما فيه مما ذكرناه لله تعالى بطريق الإجمال وهو مصر في نفسه على عدم ذلك جهلاً منه بكيفية إيقاع النسبة بمنزلة من اختبىء من عدوه في مكان فجاء عدوه يطلبه فلم يجده فخاف أن يجده فقال له: أنا في غير هذا المكان فسمع كلامه العدو فأخذه وهو لا يشعر بأنه يعلمه بكلامه وكذلك هذا يرى ما قلنا له أنه فيه ويتخيله ثم ينفيه عن نفسه بنفسه فيثبته في حالة نفيه ولا يشعر حتى يسلم لله رب العالمين ولو شعر وأسلم لله رب العالمين فقد أشرك أيضاً شركاً خفياً عنه وهو لا يشعر حتى يسلم لله رب العالمين وهكذا دائماً أبداً حتى يشعره الله تعالى لا هو يشعر بنفسه وحتى يسلمه الله تعالى له لا هو يسلم لله تعالى بنفسه، وحتى يحصل فيه ذلك في نفسه من الله تعالى لله تعالى لا هو يحصل ذلك من نفسه بنفسه وحتى يجد ذلك في نفسه لا يوجده هو بنفسه. قال النبي ﷺ: «تعرضوا لنفحات الحق فإن لله تعالى في أيام دهركم نفحات»[1] والتعرض إنما يكون بالتهيىء وإزالة الموانع وأصل ذلك الإيمان بالغيب عن العقل والحس والاستسلام لذلك باطناً وظاهراً حتى لا يبقى في العبد خاطر ينازعه في شيء من الدين ثم التأدب في معاملة الحق والخلق بالآداب الشرعية أمراً ونهياً حتى يجد الجاذب من قلبه إلى حضرة ربه من غير تكلف ويدخل في مقام الجذبة الإلهية كما قال عليه السلام: «جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين»[2] فعند ذلك يدخل في تصرف الحق تعالى وتنعزل نفسه عن التصرف فيه فيسلم من الشرك الخفي والجلي ويدخل في دائرة أهل التوحيد فإما

---

(١) أخرجه الدولابي في (الكنى والأسماء ٢/ ١٢٠)، والسيوطي في (الدر المنثور ٣/٣١٨، ٤/ ٢٥)، وابن كثير في (التفسير ٤/ ٢٣٤)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٦/ ٤٣٥).
(٢) أخرجه العجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٣٩٧).

متن الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

كلك شرك خفي ولا يبين لك توحيدك إلا إذا خرجت عنك، فكلما

أن يبقى في مقام الجذبة مسلوب الاختيار أو يرد إلى مقامه الأول فيكون مسلوب الاختيار في حالة اختياره مطلعاً على مراكز اضطراره يعلم ولا يعلم وهو موجود وليس بموجود وفاعل وليس بفاعل وهكذا جميع أحواله متناقضة وفي هذا التناقض عين الوفاق. قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فالعبد رمى وما رمى كما أنه موجود وما هو موجود فافهم إن كنت من أهل الفهم واحترز من تلبيسات الوهم وأقول:

قال الشيخ أرسلان قدّس الله سره العزيز في هذا الشأن: (كلك) أيها الإنسان في ذاتك وصفاتك وأسمائك وأفعالك وأحكامك على حسب ما ذكرناه (شرك) أي ذو شرك مبالغة كرجل عدل (خفي) عنك غير ظاهر لك فإن قلت هذا الخطاب يشمل الأنبياء عليهم السلام ومن عداهم والشرك ممتنع في حقهم ولو كان خفياً قلت إنما يشمل كل مستقل بالوجود دون ربه قائم في مقام الفرق وواقف فيه دون الجمع على ربه والأنبياء عليهم السلام منزهون عن ذلك وإن كانوا في الفرق الثاني فإن الفرق الثاني جمع وزيادة فلا يشبه الفرق الأول إلا في تعين الحضرات فقط والدليل على وجود هذا الشرك الخفي من الكتاب والسنة أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف: ١٠٦]، فقد أثبت لهم الشرك في حال إيمانهم بالله تعالى فيكون شركاً خفياً عنهم لا يشعرون به وهذا في الأكثر وأما في الأقل فهم يؤمنون بالله وهم موحدون وأما السنة فقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «الشرك في أمتي أخفى من دبيب النمل على الصفاة!»[1] وهو صريح في الشرك الخفي ومنشأ هذا

---

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ١٥٣، ٢٨١)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٧/ ٢٦٩٥).

الشرك الخفي الوهم والخيال الفاسدان فيتوهم شيئاً موجوداً بوجود مستقل غير وجود الله تعالى ولا شيء موجود غير وجود الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ [القصص: ٨٨] وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، ومن تحقق بقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥] من غير تشبيه ولا تأويل فهم ذلك حق الفهم ومنشأ هذا الوهم أن الإنسان إذا ارتفع عن قلبه قناع الطفولية وابتدأ إدراكه في عالم الدنيا يكون عقله قاصراً ومعرفته ناقصة فعند ذلك تنطبع في مرآة خياله صور الأشياء بسبب كثرة ورودها على خاطره حتى يعتادها عقله ويضبطها خياله ويتحققها في وهمه فإذا كبر وبلغ لا يكاد يصدق بوجود شيء مما وراء ذلك على غير جنس ما علمه وهو لا يدري أن هذه الأشياء التي أدركها كلها آثار الحقائق العلمية وظلال الوجودات الأزلية بمنزلة السراب الذي يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه أو بمنزلة الخيالات المنطبعة في المرآة يظنها الطفل الصغير حقائق موجودة وإنما الحقائق الموجودة ما يقابلها والله بصير بالعباد فإن قلت إن هذا الكلام يقتضي أنَّ وجود الأشياء كلها أوهام وخيالات وهو مذهب باطل قلت مرادنا أن وجود الأشياء أوهام وخيالات بالنسبة إلى تسميتها أشياء حقيقية مستقلة كما قال النبي عليه السلام أصدق كلمة قالها الشاعر قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

يعني باطل بالنسبة إلى الله، والله هو الحق بالنسبة لكل شيء ومع قطع النظر عن الله تعالى فكل شيء حق لأنه خلق بالحق قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥]، والمذهب الباطل كون وجود الأشياء أوهاماً وخيالات بالنسبة إلى الأشياء في أنفسها فإنه جحود لوجود الحق تعالى الذي قامت به الأشياء وهو مذهب القوم الضالين المضلين ثم أنَّ الشيخ رضي الله تعالى عنه حيث ذكر الداء احتاج أن يذكر الدواء لأنه طبيب الأرواح فقال (ولا يبين) أي لا يظهر (لك) أيها المشرك هذا الشرك الخفي (توحيدك) الذي أنت فيه نظير غيرك من جميع العالم وهو التوحيد الفطري الروحاني الصحيح المعتبر فإنَّ جميع بني آدم عارفهم وجاهلهم كلهم

موحدون كاملون لأنهم أولاد نبي وأولاد النبي كاملون مثله ولكن علمهم بأنفسهم وبغيرهم متفاوت فمنهم من يعرف نفسه وغيره معرفة تامة فهو النبي والكامل منهم من يعرف نفسه وغيره أدنى من ذلك وهو الصديق والولي ومنهم أدنى من ذلك، وهم الصالحون والعلماء، ومنهم من لا يعرف نفسه ولا غيره أبداً، وهم الجاهلون الغافلون وإن زعموا أنهم يعرفون نفوسهم وغيرهم، فإنَّ معرفتهم معرفة وهمية لا حقيقية، لأنها تابعة لمقتضى حواسهم وعقولهم لا تابعة لنفوسهم على ما هي عليه ولغيرهم على ما هو عليه، وتكليفهم من الله تعالى على حسب علمهم بأنفسهم وبغيرهم قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧] وقال أيضاً في آية أخرى: ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] (إلا إذا خرجت) أي انفصلت (عنك) أي عن ذاتك وصفاتك وأفعالك وأسمائك وأحكامك بحيث تحققت بتوحيده تعالى الذاتي والصفاتي والأسمائي والأحكامي، ورجعت ذاتك إلى ظهور ذاته تعالى لك ظهوراً غير مقيد غير مانع من الإطلاق بالنسبة إليها ورجعت صفاتك إلى صفاته كذلك وأفعالك إلى أفعاله وأسماؤك إلى أسمائه وأحكامك إلى أحكامه فكان هو أنت في حضرة إطلاقه واستغنائه عنك وأنت لست هو في حضرة تقييدك وافتقارك إليه وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] وفي الحديث: «موتوا قبل أن تموتوا»[1] فإن قلت الشيخ رضي الله عنه قيد الخروج بقوله عنك ولم يذكر الخروج عن بقية الأغيار مع أنه شرط في ذلك أيضاً قلت الخروج عن الأغيار سابق على الخروج عن النفس بحسب ضرورة الوجدان كما أن زمان الشباب سابق على زمان الكهولة فإن قلت للغلام حتى تصير كهلاً معناه حتى تصير شاباً ثم تصير كهلاً وههنا الخروج عن الأغيار رتبة أولى والخروج عن النفس رتبة ثانية فإن ذكرت الثانية كانت الأولى مفهومة في ضمنها فلا حاجة إلى ذكرها وبيان هذا أن نفس الإنسان محجوبة عنه بالأغيار فإذا خرج عن الأغيار ارتفع الحجاب عن نفسه فعرف نفسه فإذا عرفها خرج عنها فعرف ربه كما سيشير إليه الشيخ رضي الله تعالى عنه في آخر الرسالة بأفصح مقالة ثم لما كان ظهور التوحيد الفطري الذي فيك لك موقوفاً على

(١) أخرجه ابن ماجة في (السنن ١٠٨١)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٣/ ١٧١)، والقرطبي في (التفسير ١٨/ ١١٩).

أخلصت يكشف لك أنه هو لا أنتَ فتستغفر منك.

خروجك عنك كما ذكرنا كان دوام هذا الظهور لك موقوفاً على إخلاصك في هذا الخروج أيضاً ولهذا قال الشيخ رضي الله تعالى عنه (فكلما أخلصت) أي في خروجك عنك بأن خرجت عن هذا الخروج لأنه عندك أنه منك وإن كان في الحقيقة ليس منك بل أنت وما منك من الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨] وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩] فالسجود هو لحوق نفسك بأرضها التي خلقت منها وهي العدم والاقتراب هو السجود الثاني وهو لحوق فوق هذا اللحوق الذي ظهر لك بالعدم أيضاً (يكشف) بالبناء للمفعول أي يكشف الله تعالى (لك) بأن يظهر فيك وتجده في نفسك المعدومة وهذا الانكشاف ليس كانكشاف الأشياء المغطاة. قال العفيف التلمساني رضي الله عنه من أبيات:

جميعُ خطاب أهل الله معنى   بلا حرف وكشف دون كشف

أي: هو كشف لكنه ليس كما يكشف الغطاء عن الآنية أو الستر عن الباب بل هو أمر إذا ظهر يرى العبد أن ذلك لم يكن مستتراً بشيء وإنما الإدراك كان ضعيفاً عن الوصول إليه فقوّاه الحق تعالى فأدرك ما كان ظاهراً (أنه) أي: الشأن أو الذي انكشف لك (هو) أي: الله سبحانه وتعالى الموجود وحده فقط بالوجود القديم الخاص به (لا أنت) أي: لا وجود لك بالكلية بل أنت عدم محض حينئذ وأنت عند ذلك على ما كنت عليه قبل ذلك من غير تغيير إلا أن بصيرتك قويت فأدركت ما لم تكن تدرك من قبل كمن رأى شبحاً من بعيد فأمعن النظر إليه فتحقق أنه إنسان ثم أمعن النظر فيه فتحقق أنه فلان حتى شرع في تدبير كلمات له يقولها عند اجتماعه به ثم سار إلى نحوه وأشرف عليه فإذا هو صخر من الحجارة فإن الإنسان الذي كان في بصره قد زال ولم يكن قبل ذلك مع أنه كان محققاً له فقد فني الإنسان الذي هو فلان وبطلت العبارات التي دبرها له وظهر الصخر من الحجر الذي لم يكن. وهذا معنى قولهم حتى يفنى ما لم يكن ويبقى ما لم يزل وقال تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النجم: ١٧] وهذا في نبينا ﷺ حيث رأى ربه وقد زاغ بصر غيره وطغى فلم يرَ ربه حتى يذهب الزيغ والطغيان فيراه المؤمنون في دار الجنان وإذا انجلى غبار الأغيار يظهر لك نور جميع الأنوار وهو الله الواحد القهار. قال تعالى: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤﴾ [العاديات: ٤]

فقد أشار تعالى إلى أن العاديات وهي الروحانيات الموكلة بظهور الجسمانيات أهاجت الغبار وأثارته بينها فكان عالم الأجسام والصور بالقرآن القديم وهو الذكر الحكيم وهو الله الذي لا إله إلاّ هو العلي العظيم واعلم أنّ كل ممكن من هذه الحوادث متصف بالوجود كما أن الحق تعالى متصف بالوجود ومفهوم الوجود واحد لا يختلف إلا باللوازم والاعتبارات فهو في القديم قديم وفي الحادث حادث كما أنه في الإنسان إنسان وفي الجماد جماد والوجود نفس الماهية الموصوفة به على التحقيق وهو في القديم مطلق وفي الحادث مقيد ولا كلام لنا في المطلق لأن الكلام فيه يقيده ولو كلاماً في إطلاقه فإن قولنا عنه أنه مطلق قيد له فهو مطلق عن الإطلاق وأما الكلام في الوجود المقيد فهل ماهيته أعراض فيه أو هو عرض فيها يصح القولان وعلى كل حال لا يخرج عن كونه عينها إذ لا زائد عليه وإنْ كثُر وتعدد فالماهيات أعراض والوجود عرض وأي قام بالآخر لزم قيام العرض بالعرض وليس بممتنع في القدرة الإلهية ولزوم التسلسل بذلك إمكاناً لا يقتضي وجوده عياناً ولا شك أن العرض يتجدد في كل زمان ويتبدل في كل أوان والوجود الحادث العرض أثر من آثار الوجود القديم قائم بالوجود القديم ولكن ليس مثل قيام العرض بالجسم بحيث تحل فيه كالعلم بالعالم والبياض بالقرطاس وقد خلق الله تعالى ذلك مثالاً له مضروباً لقيام الحوادث به تعالى. قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣] فإن كنت من العالمين فاعقل المثال. واعلم أنه من أي وجه ضرب مثالاً ولا تقسه على الممثل له وتأمل الأنوار المنتشرة في زوايا البيت ليلاً فإنها آثار نور المصباح المتقد فيه وليس ضعف الأنوار المنتشرة مثل قوة نور اللهبة في المصباح بل لا نسبة بين النور الذي هو أثر والنور الذي هو مؤثر وإياك أن تفهم من هذا المثال أنه مثل القديم والحادث فإن نور اللهبة والأنوار المنتشرة ليلاً في البيت جميع ذلك حادث والقديم منزه عن مشابهة ذلك.

ولكن جميع العلوم الحادثة اعتبارات لأولي الألباب ليعرف بها السالك من وجه الباب (فتستغفر) أي: تطلب مغفرة الله تعالى ومسامحته (منك) أي: من الذنب العظيم الذي هو أنت من قبيل قول الشاعر:

فإنْ قلتَ ما ذنبي إليك أجبتني وجودكَ ذنبٌ لا يقاسُ به ذنبُ

وسبب هذا الاستغفار بقية بقيت عندك من بعض الآثار وفي الحديث قال النبي ﷺ: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة»[1] وفي رواية مائة مرة واستغفار النبي ﷺ ليس من غين الأغيار بل من غين الأنوار لأنه دائم الترقي فكلما رقي إلى رتبة في القرب الإلهي وجد الرتبة التي كان فيها قبل ذلك غيناً وحجاباً فيستغفر الله منها. قال تعالى له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] والوارثون له عليه السلام لهم نصيب من ذلك كما هو مأخوذ من إشارة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [الأحزاب: ١٣] فإن قلت قول الشيخ رضي الله عنه لا أنت معناه التحقق بعدم الوجود وقوله فتستغفر منك صريح في الوجود لثبوت المستغفر قلت والأمر كذلك لأن هذه رتبة الكاملين الذين ينظرون بعينين لا بعينٍ واحدةٍ فإن من تحقَّق بعدم وجودهِ مع الله تعالى فقط فهو ناقصُ المعرفةِ ومن تحقق بوجودهِ مع الله تعالى فقط فهو أنقص منه والكامل في المعرفة من جمع بين المقامين ووقف في الحقيقة البرزخية وذلك لأنه لا بد من حق وخلق إذ لولا الحق ما عرف الخلق ولولا الخلق ما عرف الحق ومن أنكر واحداً منهما فهو جاهل ومع جهله كافر والكاملُ متحقق بعدم وجوده مع الله تعالى إعطاء للربوبية حقها ومتحقق بوجوده مع الله تعالى إعطاء للعبودية حقها فيعد وجوده ذنباً في تحققه الأول ويستغفر منه في تحققه الثاني ويلزمُ من استغفاره منه عوده إليه فيستغفر منه وهكذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] والذنب دائم والتوبة دائمة والعبودية موضع الذنب والربوبية موضع التوبة ومراعاة الطرفين مطلوب الخلق في حضرة علم الحق والحق في حضرة علم الخلق فالحق حق والخلق خلق وحق والحق الحق فيه باطن والخلق فيه ظاهر والخلق الخلق فيه ظاهر والحق فيه باطن وهذه هي المضاهاة الإلهية المشار إليها بقوله عليه السلام: «إن

(١) أخرجه مسلم في (الصحيح ٤١)، وأبو داود في (السنن ١٥١٥)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/ ٢١١، ٢٦٠)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٧/ ٥٢)، والطبراني في (المعجم الكبير ١/ ٢٨٠)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٣٢٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/ ٥٧، ٨/ ٢٩٩، ٥١٧، ٩/ ٥٩، ٦٢٨)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٢/ ٤٣)، (بغوي ٦/ ١٨٠)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦/ ٦٣)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ١٠١)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٠٧).

الله خلق آدم على صورته»[1] وفي رواية على صورة الرحمن (وكلما وحدت) أي: تحققت في هذا الانكشاف المذكور أنه هو لا أنت (بان) أي: ظهر واتضح (لك الشرك) المعهود وهو الخفي الذي كان فيك وأنت غافل عنه (فتجدد له) سبحانه وتعالى بسبب ذلك (في كل ساعة) أي: زمان يسير (ووقت) وهو أعم من الساعة لانطلاقه على الزمان الكثير بخلاف الساعة لغة (توحيداً) أي: تحققاً أنه هو لا أنت (وإيماناً) أي: تصديقاً بحقية أنه هو لا أنت.

فالمرادُ بالتوحيدِ ظهورُ صفته الوحدانية للعبد حتى ينمحق كله فيها ولا يبقى له أثر إلا مجرد التصديق القلبي بأن ذلك حق والإيمان هو التصديق بحقيقة ذلك والاعتراف به والإذعان له فالتوحيد المذكور اضطراري لا تصرف للعبد فيه والإيمان اختياري يمكنه التصرف فيه ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦] وذلك لأن الإيمان اختياري لهم فأمكنهم الإتيان به وأما التوحيد فلكونه اضطرارياً لم يمكنهم الإتيان به، وإنما أمكن بعضهم عناية من الله تعالى، وهذا التوحيد المذكور هو التوحيد القلبي المعتبر، وأما التوحيد اللساني الذي اعتبره الشرع من حيث الظاهر للحكم الدنيوي كتوحيد المنافق فهو كثير، وليس المراد هنا بالتوحيد ذلك أصلاً، ولا يذهب عليك أنَّ التوحيد اضطراري كما ذكرنا فكيف يمكن تجديده لأنا نقول تجديده بمعاطاة أسبابه المؤدية إليه من معرفة النفس والكون.

وفي الجمع بين التوحيد والإيمان إشارة إلى أن كلاً منهما لا يعتبر بدون الآخر على المعنى الذي ذكرناه إذ من عنده توحيد، ولا تصديق له بحقيقة توحيده فهو هالكٌ، ومن عنده تصديق بحقيقة ذلك، ولا توحيد له بالمعنى المذكور، فهو غير سالك فإن قلت قال الشيخ رضي الله عنه فيما سبق، فتستغفر منك، وقال هنا فتجدد له توحيداً وإيماناً ولم يذكر الاستغفار.

---

(١) أخرجه مسلم في (الصحيح. البر والصلة ١١٥)، (الجنة ٢٨)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٢٤٤، ٢٥١، ٣٢٣، ٤٣٤، ٤٦٣، ٥١٩)، والحميدي في (المسند ١١٢٠، ١١٢١)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ١/ ٣٩٥)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/ ٣)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٢/ ١٦٦)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ١٠٧٧)، وابن أبي عاصم في (السنة ١/ ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٢٩٠، ٢٩١).

وكلما خرجت عنهم زاد إيمانك، وكلّما خرجت عنك قوي يقينك.

قلت: لأن في الأول يظهر لك أنه هو لا أنت فيكون ذنبك الذي هو أنت ذنباً سبق منك لا أنت فيه فتستغفر منه.

وأما هُنا فقد بانَ لك الشّرك، فلو استغفرت منه ألف مرة، وهو مقيم فيك ما أفادك ذلك شيئاً، بل يتعين عليك إزالته بأنْ تجدد توحيداً وإيماناً فإن التوبة من كلّ ذنبٍ بحسب ذلك الذنب.

وفي قول الشيخ رضي الله عنه فكلما أخلصت يكشف لك وكلما وحّدت بان لك إشارة إلى أنّ هذا الكشف، وهذا البيانُ يتجددان بتجددِ الإخلاص والتوحيد ويدوم الترقي فيهما بدوامهما، فربما كان التوحيد كشفاً لقوم وهو حجابٌ لقومٍ آخرين، بل هو عندهم إلحاد فيحتاجون إلى الخروج عنه، كما أشار إلى ذلك الإمامَ الهروي في آخر كتابه **«منازل السائرين»** بقوله:

ما وحّدَ الواحدُ من واحدِ إذ كُلّ من وحّده جاحدُ
توحيدُ من ينطقُ عن نعتهِ عاريةٌ أبطلها الواحدُ
توحيدُه إياه توحيده ونعت من ينعته لاحدُ

فإنّ توحيد الموحد يقتضي وجود موحد وموحد وتوحيده وهي ثلاثة أشياء في نفس كلّ موحد وإن كان يجهلها ومع التثليثِ أين التوحيد ونعت من ينعته إلحاد لأنه إنما ينعته بما فهم من نعوتِه الواردة عنه تعالى والذي فهمه منها بعيد عن حقيقة المراد بها لأنها قديمة وما فهمه حادثٌ فقد عدل عن حقيقة النعوتِ القديمةِ إلى المعاني الحادثةِ التي فهمها والعدول عن ذلك إلحاد **(وكلما خرجت)** أي: أعرضت **(عنهم)** أي: عن جميع الأغيار ولم يتقدم لهم ذكر لعدم إرادة أغيار مخصوصين وغلب جماعة الذكور على غيرهم لصعوبة الخروج عنهم بالنسبة إلى غيرهم لكمال الاحتياج إليهم في المهمات ومعنى هذا الخروج أنْ تجد نفسك خارجةً لتحققها بمعرفةِ من خرجت عنه لأنه عدم صرف لابسٌ ثوبَ الوجودِ المستعارِ وتخيّل ذلك في الذهن واتقانه بالحفظِ حجابٌ له على الحقيقةِ **(زاد)** أي: كثُر نوراً وإشراقاً **(إيمانك)** أي: تصديقك بالله تعالى وإذعانك

له وذلك لأن التصديق بالشيء يزداد إذا اقتصر النظر عليه وآيات الله تعالى في الآفاق، وفي الأنفس إذا تبصر فيها المؤمن ازداد إيمانه فصار شهوداً للغيبِ ومعاينةً له من وراءِ أستارِ الجلالِ والكبرياءِ قال تعالى: (فزادهم إيماناً مَعَ إيمانهم)، فإيمانهم الأول كان تصديقاً والثاني شهوداً ولا شكَّ أنَّ هذا الشهود زيادةٌ على التصديقِ (وكلما خرجت) أي: انفصلت (عنك) أي: عن نفسك زيادة على خروجك عن سائر الأغيارِ فإنَّ الخروجَ عن الغير يحتاج إلى ممتاز عن ذلك الغير، وإلى خارجٍ عنه، والممتاز، والخارج هو النفس فلا بد منها في مقام الأيمان. وإن كان شهوداً ومعاينة فإن حجاب الغيبِ مسدولٌ وسترُ العظمةِ لا يزول فإذا خرج عن نفسه أيضاً لا يبقى ممتاز ولا خارج فزال الحجاب وانقشع الستر وانجاب فعند ذلك (قوي) أي: اشتد (يقينُكَ) بالله تعالى حتى صرت عالماً ربانياً. قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩] والرباني منسوبٌ إلى الرب ولولا خروجهِ عَن النفس ما نسب إلى الربِّ وغير الرباني النفساني، وهو المنسوب إلى نفسه لقيامه بها لا بربه يعني في زعمه وإلا فإنَّ الكلَّ قائمونَ بربهم والمرادَ باليقينِ سكونُ القلبِ إلى الله تعالى وعدم تحركه إليه لتحققه به وإنما قال في الإيمان زاد وفي اليقين قوي لأنه ذكر الخروج عنهم في الإيمان وهم كثيرون والكثرة تناسبها الزيادة وذكر الخروج عن النفس مع اليقين. والنفسُ واحدةٌ فيناسبها القوة ثم استشعر الشيخ رضي الله عنه بموانع تحصل للسالك في طريق المعرفة ترجع به عن الجمع إلى الفرق فنبّه عليها بقوله: (يا أسير) أي: مأسور فعيل بمعنى مفعول بني للمبالغة (الشهوات) المباحة فضلاً عن المحرمة وهي أنواع كثيرة شهوة مأكل ومشرب وملبس ومنكح ومسكن ومركب ومال وولد ودنيا وجاه وخدم وعلم وصاحب ونزهة إلى غير ذلك. وإنما كان أسيرها لميلهِ إليها، واشتغاله بها، ورغبته فيها دون ربه، وقدمها في الذكر لأنها أدنى حالة وأقوى مانع، وأكثر وجوداً، ولأنها أصل في جميع ما بعدها فإن قلت الأنبياء عليهم السلام كانوا يستعملون الشهوات المباحة على اختلاف أنواعها وسليمان عليه السلام قال: «رب هَبْ لِي مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعدي» فقد طلب الجاه العظيم في الدنيا، وحصل له ذلك، قلت: استعمال الأنبياء عليهم السلام للشهوات استعمال روحاني، فهي لذائذ لا شهوات، واستعمال غيرهم لها استعمال نفساني، فلذلك سميت شهوات، وإذا

كان الولي يصل إلى مرتبة تصير نفسه فيها روحاً، وتصيرُ شهواته لذةً روحانيةً، ويعودَ شُغلهُ الباطني بالأغيار علماً وفهماً في الله تعالى، فما بالك بالأنبياءِ عليهم السلام، وهم أكمل خلق الله تعالى، والحاصلُ أنَّ المنهمكَ في الشهواتِ له روحٌ وله نفسٌ، وتلك الشهوات التي انهمكَ فيها لها باطنٌ ولها ظاهرٌ، فالروحُ تنهمكُ في الباطنِ والنفسُ تنهمكُ في الظاهرِ، فإذا كان العبدُ ظاهرياً محضاً غافلاً عن الباطن، كان انهماكه انهماكَ شهواتٍ نفسية في أمر دني زائل، وهو الظاهر، وإذا كان باطنياً عارفاً كانت روحُه منهمكةً في أمرِ عظيم باقٍ لا يفنى، وذلك الأمر الباطني العظيم من لازمه ذلك الظاهر فلا بد منه. ولَهذا كانت الملائكةُ لا يزدادون، ولا ينقصون في مقاماتهم، لعدم معاطاتهم لهذه الأمور العظيمة الباطنية التي ظاهرها هذه الشهوات الجسمانية لأنها أسرارٌ بين الله تعالى وبين الأرواح، ولا تظهر للنفوس كما هي، بل تظهر على خلاف ما هي عليه فهي مذمومةً لذلك ومن لازم ظهور الأمر على خلاف ما هو عليه زواله وفناؤه من حيث هو خلاف ما هو عليه **(والعبادات)** ثني بها لأنها أصرح في ذلك مما بعدها وهي جمع عبادة اسم لكل ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى، من أنواع الطاعات الظاهرة كأفعال الجوارح، والباطنة كالإيمان، والتوحيد والمعرفة وإنما كان أسيرها لمحبته لها لا لله تعالى، ونظره إليها لا إلى الله تعالى واشتغاله بها لا بالله تعالى، بل هو غائب عن الله تعالى الذي هو غائب عنه لعدم حيائه منه، فالعبادات التي هذا شأنها عنده ذنوبٌ له لا عبادات، فإن قلت كيف يصح هذا مع إن من العبادات معرفة الله تعالى وشهوده، وفي ذلك لذة لا تعادلها لذة وهي المسماة بحلاوة الإيمان والتوحيد. فكيف تكون مذمومة قلت: هي لذةُ روحٍ لا لذةُ نفسٍ ولذائذُ الروحِ كلها محمودةٌ لأنها مقصودة للروحِ من حيث ظهور الحق تعالى بها، لا من حيث هي. ولذائذ النفس كلها مذمومةٌ، لأنها مَقصودة للنفسِ من حيث هي لا من حيث الحق تعالى الظاهر بها، وإلى ذلك يشير الشيخ شرف الدين بن الفارض قدس الله سره بقوله:

هبي قبل يفني الحبُ مني بقيةً ... أراك بها لي نظرةَ المتلفتِ

ومُنّي على سمعي بلن إن منعت أن ... أراكِ فمن قبلي لغيري لذتِ

يعني: لذّة لن تراني لموسى عليه السلام من حيث ظهور الحق تعالى له بها، ثم أعقب ذلك بذكر ما يخفى على السالك من موانع الأحوال، ولذلك صرح فيه بلفظ أسير حيث قال (يا أسير) أي: مأسور (المقامات) جمع مقام كحمامات جمع حمام، واصطبلات جمع اصطبل، مجموع بالألف والتاء وإن كان مذكراً وهو الحالة المستمرة التي يدركها السالك، ويجد بسببها في نفسه نشاطاً إلى تلقي المدد من الجانب الأقدس لم يجده قبل ذلك، ولم يذكر الأحوال لأنها فهمت بالطريق الأولى، وهي غير مستمرة بخلاف المقامات وإنما كان أسيرها لوقوفه عندها، لا عند ربه سبحانه وطلبه لها لا لربه، واشتغاله بها لا بربه، وهذا شأن من يطلبها من حيث هي مقامات لا من حيث هي ظهور الحق سبحانه وتعالى له فيها (والمكاشفات) جمع مكاشفة وهي بلوغ ما وراء حجاب العلم من المشاهدةِ الإلهية احترازاً عن المكاشفة الصورية وهي كشف الصور، مثل الإخبار بوقت قدوم غائب، والإخبار بما وراء الجدار بما لم يشاهد بالحس، ونحو ذلك وتلك المكاشفة ليست في طريق الله تعالى بل هي قاطعة عنه، ولذلك لم يختص بها ملة دون أخرى كذا حققه العارف التلمساني عفيف الدين قدس الله سره في شرح «منازل السائرين» للهروي رحمه الله تعالى، وإنما كان أسيرها لأنها من جملة الأغيار، فالوقوف عندها قاطع عن الوصول إلى معرفة نور الأنوار قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٤٢] ولا نهاية له تعالى فلا نهاية للسير إليه فالعالم سائر من الأزل إلى الأبد متقلب في الأطوار العلمية قبل الأطوار الوجودية، ومن كلام بعضهم: لو رفعت إلى ذروة الأكوان وترقيت إلى حيث لا مكان ثم اغتررت بشيء طرفة عين فلست من أولي الألباب ومما يحكى عن أبي الحسن الدينوري رضي الله تعالى عنه أنه وقف ليلة كاملة بعد إحرامه بالصلاة على رؤوس أصابعه فسأله من حضره عن سبب ذلك فقال طافت روحي السموات والأرضين والجنة والنار وقيل لي هل أعجبك شيء في مُلكي فقلت: لا، فقال لي: أنت حينئذ عبدي حقاً. وقال ابن الفارض رضي الله تعالى عنه:

قال لي حُسنُ كل شيء تَجلّى بي تملي فقلتُ قصدي وراكُ

من قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [البروج: ٢٠] (أنت) يا أيها الأسير

أنت مشتغل بك عنه أين الاشتغال به عنك، وهو عزّ وجلّ حاضرٌ ناظرٌ وهو معكم أينما كنتم في الدنيا وفي الآخرة، فإذا كنت معه حجبك عنك،

لهذه الأربعة أشياء الشهوات، والعبادات والمقامات، والمكاشفات المرتبة على سبيل الترقي (مغرور) بسبب دخولك تحت أسر هذه الأغيار، فلا تظن نفسك من جملة المقربين الأخيار ما دمت ملتفتاً إلى هذه الأغيار المتصورة، في صور القرب، ومشتغلاً عن مؤثرها بالآثار (أنت مشتغل بك) أي: بحظوظ نفسك الظاهرة كالشهوات، والخفية كالعبادات، والمقامات والمكاشفات (عنه) أي: عن من تزعم أنك تريد التقرب إليه، والإقبال عليه وهو الله سبحانه وتعالى (أين الاشتغال) المعهود لك يعني اشتغالك الذي تزعم أنه (به) أي: بالله سبحانه وتعالى (عنك) أي: عن نفسك فضلاً عن سائر الأغيار، فإنك كاذبٌ فيه إذ لو كُنتَ صادقاً ما التفت إلى شهوة أو عبادةٍ ولا مقام ولا مكاشفةٍ ولأفردت القصد إليه تعالى وحده دون جميع ما عداه. ولجردت الهمة والعزم فيه تعالى، وتركت كل ما سواه ثم تركت تركك لكل ما سواه ولم تلتفتْ إلى ذلك الترك، لأنه غيره تعالى وتركت الالتفات إلى همتك وعزمك إليه تعالى لأن ذلك كله أغيار له تعالى، فمتى أقبلت على شيء من ذلك فأنت كاذب في دعوى إقبالك على الله تعالى، ونقل ابن عطاء الله السكندري في التنوير في إسقاط التدبير عن شيخه أبي العباس المرسي رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول: لن يصل الولي إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى الله تعالى، ثم قال رضي الله تعالى عنه تنهيضاً للسالك باستبعاد ما هنالك (وهو) أي: من أنت مغرور بغيره مشتغل بنفسك عنه، والواو للحال (عز) أنْ يكون حضوره كحضور خلقه في مكان وزمان وهو عزيز عن أن يغتر أحد بغيره (وجل) عن أن يكون نظره كنظر خلقه بجارحة، أو مسافة، أو جهة أو هو جليل عن أن يشتغل عنه أحد، (حاضر) أي: موجود رقيب غير غائب حتى تغتر بغيره (ناظر) أي: مبصر لكائناته كلها لا يخفى عليه شيء منها، فكيف تشتغل عنه بنفسك، ثم أكد ذلك بقوله (وهو معكم) أيها العباد المخلوقون بصفته القيومية الثابتة لذاته العلية، لا أنتم معه كما سنبينه (أينما كنتم) أي: وجدتم (في) عالم (الدنيا) التي وجودكم المخلوق فيها له نهاية (وفي) عالم (الآخرة) التي وجودكم المخلوق فيها لا نهاية له، واعلم أن المعية صفة قديمة من صفات الحق تعالى، وهي معيته لكل مخلوق من جميع مخلوقاته، بحيث لو لم يكن الحق تعالى مع ذلك المخلوق، أي: مخلوق كان ما تكون

وإذا كنت معك استعبدك له.

ذلك المخلوق، ولا وجد ولا ظهرت له عين، وحيث كان كل مخلوق في علم الخالق، وعلم الخالق صفة من صفات الخالق، فقد تصور الخالق من حيث صفته العلمية بصورة كل مخلوق، لا من حيث ذاته، ثم ظهرت صورة المخلوقات التي في الصفة العلمية مترتبة على ما سبقت به الإرادة الأزلية، فهي العالم فلولا معيته تعالى بذاته وصفاته في حضرته العلمية لكل شيء، ما كان وجد شيء فإن كل شيء هالك من حيث هو شيء، لا وجود له مطلقاً إلا وجهه تعالى، وهو توجهه تعالى متصوراً من حضرته العلمية بصورة ذلك الشيء المعدوم، الذي لا يصح له وجود من نفسه أبداً، فالله مع كل شيء بصورة ذلك الشيء وليس شيء مع الله تعالى مطلقاً، فإن قلت كيف يتصور القديم المطلق في صورة مقيدة، ولو في حضرة علمه قلت تصوره في حضرة العلم أمر من ضروريات العلم، ولكن تصور في مطلق عن الصورة ثم ذلك المطلق عن الصورة في العلم عين العلم كما أن علمه تعالى بزيد مثلاً متضمن لعلمه بجميع ما يتصوره زيد في نفسه فما يتصوره زيد في نفسه يتصوره الحق تعالى بعلمه المطلق. ولكن في ضمن العلم بزيد فأول ما يعلم الله تعالى يعلم نور محمد ﷺ مطلقاً، عن جميع الصور ثم يعلم جميع الصور منه فيه، فعلم الله تعالى مطلق عن جميع قيود الصور ومعلومه تعالى وهو نور محمد ﷺ مطلق أيضاً عن جميع قيود الصور. من حيث هو معلومه تعالى، وأما من حيث هو نور محمد ﷺ فهو مقيد بجميع الصور ما كان منها، وما يكون، ولهذا ورد في الحديث أن أول ما خلق الله تعالى نور محمد ﷺ، ثم خلق منه كل شيء، فما ثم إلا الله تعالى متجلياً على نور محمد ﷺ، والنور حائر فيه تعالى، وقد ألبسه الله تعالى حلة صفاته وأسمائه، فهو يصور هذا المتجلي عليه في صور لا نهاية له، ثم بنفيها عنه تعالى، وهو حقيقة التسبيح الذي قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤] فذكر تسبيح ما هو معدوم لوجوده فيما هو وجود عين ذلك الموجود، وهو نور محمد ﷺ المطلق. كما ذكرنا معدوم لوجوده تعالى المطلق، في رتبة علمه تعالى به، فهو الله في السموات وفي الأرض ولا سموات ولا أرض من حيث هي سموات وأرض، بل الله الذي لا إله إلا هو المنزه عن كل تشبيه، وتكييف المقدس عن كل تمثيل، وتعريف وتوصيف، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل (**فإذا كنت**)

أي: وجدت أيها السالك بأن صور لك الحق تعالى في نفسك أنك موجود معه سبحانه وتعالى، وإلا ففي حقيقة الأمر لا وجود لك معه أصلاً، بل ما أظهره لك مما تسميه أنت، إنما ذلك هو متصور بالنور المطلق، الذي علمه الله تعالى على إطلاقه، ثم قيده بالصور، كما أن الصندوق والباب والكرسي هي ذات الخشب لا زائد عليها والصندوق والباب والكرسي بعد زوال الحقيقة الخشبية عدم صرف، فلا وجود إلا للخشب إن وجد الصندوق، والباب والكرسي وإن لم يوجدوا، ولا تظن حيث ذكرنا لك هذا المثال أن الحق تعالى للعالم كالخشب لهذه الأشياء المصنوعة بل نور محمد ﷺ، كذلك فإذا وصلت إلى الحقيقة المحمدية وصلت إلى الله تعالى، فلا تحتاج أحداً يعلمك حينئذ (حجبك) أي: ستر حقيقتك المتصورة من النور المحمدي بالتوجه القديم التي هي حقيقة القديم، من حيث حضرته العلمية كما ذكرنا (عنك) فتصير غافلاً محجوباً زائغاً تائهاً تذهب في معرفته كل مذهب ولا تهتدي إليه تعالى مع أنه معك، وهو أقرب إليك منك (وإذا كنت) أي: وجدت (معك) أي: مع حقيقتك المتصورة من النور المحمدي بالتوجه القديم التي هي حقيقة القديم من حيث حضرته العلمية كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ١٠٨] وفي الحديث: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] (استعبدك) تعالى أي جعلك عبداً (له) تعالى ولا يتركك معك في حقيقته العلمية لأنها تعطيل لمقام العبودية، فأنت حينئذ عبد صرف لرب صرف، وهو مقام محمدي شريف قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩] ولله در القائل حيث قال:

لا تدعني إلا بيا عبدها ... فإنه أشرف أسمائي

ويمكن أن تقول في معنى هذا الكلام كله، إذا كنت معه بأن كنت ناظراً إليه تعالى مشتغلاً به تعالى عن نفسك حجبك عن نفسك فلا تجد نفسك معه تعالى ويبقى هو تعالى ولا أنت.

الإيمان خروجكَ عنهم، واليقينُ خروجك عنك.

وهذا مقام الجمع، وإذا كنت معك، أي: مع نفسك لا معه تعالى، بل كنت معرضاً عنه تعالى مشتغلاً بنفسك عن الاشتغال به، وهو مقام الفرق استعبدك له، أي: جعلك عبداً له تعالى وأتعبك بأنواع التكاليف الشاقة ثم أخذ الشيخ رضي الله تعالى عنه يبين الإيمان واليقين، حيث وقعا في كلامه السابق فقال:

(الإيمان) أي: التصديق الكامل بالله تعالى، والإذعان له، والانقياد إليه على أتم الوجوه إنما هو **(خروجك)** أيها المريد أي: إعراضك بالكلية إعراضاً وجدانياً لا تخيلياً، لأن النفس تخيل للعبد ما ليس موجوداً فيه أنه موجود فيه، ويكون على خلاف ذلك وعلامة صدقها أن لا تجد في البصيرة غير الوجود الحق سبحانه وتعالى **(عنهم)** أي: عن جميع الأغيار، وغلب جماعة الذكور، كما ذكرنا فيما سبق. وإنما كان الإيمان الكامل خروجك عن جميع الأغيار لأن التصديق بالحقيقة الظاهرة بصور جميع الأغيار باعتبار الحضرة العلمية كما ذكرنا، لا يمكن على ما هي عليه إلا بعد ذهاب ما التبست به من جميع صور الأغيار، فإذا انمحت عن عين بصيرتك سائر الصور ظهرت لك الحقيقة على ما هي عليه فوجدت الإيمان بهذا حينئذ كما قال الشيخ عبد الوهاب السودي اليمني قدس الله سره:

لو تلاشتْ عَنْهُمُ الظُلَمُ ... وانمحوا عن عالمِ الصورِ
شاهدوا معناك منبسطاً ... سارياً في سائرِ الفطرِ
ودروا أنَّ الحجاب همو ... عن جمال المنظر النضرِ
وقضى يعقوبُ حاجتَهُ ... وانتهى زيد إلى الوطرِ

(واليقين) بالله تعالى، وهو سكون القلب إلى الشيء والطمأنينة به، حتى لا يبقى في القلب حركة إلى سواه بالكلية **(خروجك)** أيها المريد، أي: إعراضك إعراضاً وجدانياً كما ذكرنا **(عنك)** أي: عن نفسك زيادة على خروجك عن جميع الأغيار بحيث ينمحي تعين وجودك من عين بصيرتك، وتجد الحق ظاهراً للحق لا لك لأنك معدوم وهو موجود، وهذا اليقين له ثلاث مراتب:

مرتبة علم اليقين: وهي فهمك لما ذكرنا في تعريف اليقين، واطلاعك على دليل

إذا زاد إيمانك نُقلتَ من حالٍ إلى حال، وإذا زاد يقينك نُقلتَ من مقام إلى مقام.

صحة ذلك من الكتاب والسنة، حتى لا يبقى عندك شبهة في صحته، وصدقه.

ومرتبة عين اليقين: وهي وجدان ذلك في نفسك، وشهوده فيك وذوقك له، بحيث تستغني عن حكايته وعن الاستدلال على صحته.

ومرتبة حق اليقين: وهي أن تجد ذلك فيك، وتجد فهمك لذلك في عين وجدانك له وينمحي وجودك مع الحق تعالى في عين وجودك الثابت لك، فترجع إلى بدايتك في نفس نهايتك، وفوق ذلك مراتب أخرى أكثر من هذه، ثم شرع في بيان مراتب الإيمان.

واليقين بطريق الإجمال: وهي أن تجد ذلك فيك، وتجد فهمك لذلك في عين وجدانك له، وينمحي وجودك مع الحق تعالى في عين وجودك الإجمالي، فقال:

(إذا زاد) أي: قوي واشتد **(إيمانك)** المذكور الذي هو خروجك عن الأغيار في وجود الواحد القهّار **(نقلت)** أيها السالك أي: نقلك الحق تعالى، ولم يقل: انتقلت إذ لا مدخل للنفس في ذلك **(من حال)** وهو ما لا استقرار له من مشاهد القرب إلى الله تعالى **(إلى حال)** آخر أعلا منه، وذلك بأن تنقل من حال شهودك الأغيار إلى أحكام الواحد القهار إلى حال شهودك، جميع ذلك أفعاله الصادرة عنه بالإرادة والاختيار، ومنه إلى شهودك كل ذلك أسماءه الحسنى، المسمى بها من غير استتار، ثم منه إلى شهودك ذلك صفاته تعالى مشرقة الأنوار، ثم منه إلى شهودك ذلك ذاته سبحانه وتعالى العلية المنزهة العظيمة الأسرار، حتى تصل إلى رتبة اليقين فوق رتبة الإيمان المتين فترقى إلى مقامات عالية ومراتب رفيعة سامية، وذلك قوله **(وإذا زاد)** أي: قوي واشتد **(يقينك)** المذكور، الذي هو خروجك عنك بعد خروجك عن جميع الأغيار **(نقلت)** أي: نقلك الحق تعالى بلطفه **(من مقام)** وقد سبق تعريفه والمراد رتبة من مراتب اليقين **(إلى مقام)** أرقى منه فمن رتبة علم علم اليقين إلى رتبة عين علم اليقين، ثم إلى رتبة حق علم اليقين، ثم إلى رتبة علم عين اليقين، ثم إلى رتبة عين عين اليقين، ثم إلى رتبة حق عين اليقين، ثم إلى رتبة علم حق اليقين، ثم إلى رتبة عين حق اليقين،

إلى رتبة حق حق اليقين، ثم إلى رتبة حقيقة حق اليقين كذلك وهكذا في مراتب أخرى عالية، ومعارج سامية، وتفصيل هذه المقامات، وبيانها لا يليق بهذا المختصر.

(الشريعة) المحمدية، وغيرها في حق كل أمة كذلك قبل النسخ وهي البيان الإلهي المستفاد من الوسائط الناطقين عنه تعالى المقتضي لامتثال أمره تعالى فعلاً أو تركاً قطعاً أو ظناً أو تخييراً، والمخاطب بذلك كل مكلف لانتظام الأحوال وظهور الفرق بين الهدى والضلال (جعلت لك) أيها العبد المكلف أي: أنت المخاطب بها جميعها إيماناً واستعمالاً (حتى تطلبه) سبحانه وتعالى بإيمانك وأقوالك وأعمالك، فيكون هو مقصودك من ثوابك على ما يصدر منك من إطاعته الباطنة والظاهرة.

وتقطع نظرك عن طلب غيره، من ثواب الآخرة أو الدنيا (منه به تعالى) يعني: لا تطلبه من غيره، فإن غيره لا يوصلك إليه لأنه عاجز عنه مثلك، والعاجز لا يقدر على إيصال نفسه ما لم يوصله هو سبحانه وتعالى إليه، فكيف يوصل غيره؟. وقد قال تعالى لمحمد ﷺ مع أنه أفضل الخلق عنده: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]، وقال تعالى له أيضاً: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] فمن دونه بالفضيلة أولى أن لا يهدي من أحب وأن لا يكون له من الأمر شيء. وأما قوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] فمبني على خطاب الله تعالى له ﷺ وهو في مقام انمحاق إرادته ومحبته وجميع صفاته في إرادة الحق تعالى، ومحبته وجميع صفاته كما قال تعالى عنه في هذا المقام: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وأما آية: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]فقد خاطبه تعالى بها وهو في مقام الغين الذي قال عنه ﷺ: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة» وفي رواية مائة مرة.

ومقام الغين يقتضي الفرق وثبوت النفس بالحق تعالى وغير الحق تعالى لا يوصل إليه تعالى ما لم يكن الله تعالى هو الموصل وحده سواء كان الغير مرشداً كاملاً من بني آدم أو من غيرهم. قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧] وكذلك العبادات والطاعات، وإن كانت مقبولة عند الله تعالى لا توصل إليه تعالى لأنها غيره، والإيصال منه تعالى وحده لا منها (لك) أي: لأجل إعطاء نفسك حقها من

الفناء والزوال في تجلي العظيم المتعال، ثم بقاؤها به تعالى من غير بقاء لها معه على حدة، ولا استقلال، فإذا طلبته سبحانه وتعالى كما قال الشيخ رضي الله عنه منه تعالى لا من عبادة، ولا من عبادتك له ولا لأجل غيره من نعيم الآخرة، أو النجاة من نارها أو نحو ذلك، فإن الشريعة حينئذ لا تصير لك لانكشاف الأمور عندك، والشريعة إنما هي البيان الإلهي، كما ذكرنا لأنها مشتقة من الشرع، وهو البيان. قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ [الشورى: ١٣] أي: بين لكم وأظهر، وتصير جميع أعمالك الصادرة منك جارية عليك جريان باقي أعراضك التي أنت موصوف بها، فإن من المعلوم عندك أن البياض أو السمرة التي هي وصفك مقدرة عليك حكماً إلهياً، وواقعة فيك قهراً عنك لا قدرة لك على امتناعك عنها، ولا على اتصافك بها إذا لم تكن متصفاً بها.

وكذلك أعمالك الخير والشر جميعها، من هذا القبيل، وإن زعمت في نفسك وأنت في جاهليتك قبل إسلامك إنك قادر على إيجادها فيك، وعلى امتناعك منها فإذا دخلت في مقام إسلامك المذكور، وجدت نفسك لم تبرح من حين خلقها الله تعالى عاجزة عن إيجاد شيء، وعن الامتناع عن شيء، وإنما كان الوهم والجهل مانعك عن إدراك حقيقة الأمر، فعند ذلك تسترسل من مقدم حقيقة مؤخر إدراك الأمر. فعند ذلك تسترسل مع أفعال الله تعالى فيك، وأحكامه عليك، وتشتغل نفسك بإنفاذ ما قضاه الله عليك، وقدره، فلا تتفرغ لدعوى إيجاد أمر أو لامتناع من أمرٍ وأما جزؤك الاختياري الذي هو كناية عن مجموع قدرتك الحادثة فيك وإرادتك الحادثة، فهو أيضاً عرض يوجده الله تعالى فيك على التجدد والتبدل كبقية الأعراض لا تأثير له في شيء من أعمالك. قال الله تعالى: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ [البقرة: ٢٦٤] وإنما وجوده فيك يرفع عنك اسم المجبور ويسميك باسم القادر المريد المختار لأن لك قدرة وإرادة واختياراً، وإن كانت قدرتك وإرادتك واختيارك لا تأثير لشيء منها مطلقاً، فيصير الخير من أعمالك يستبين لك أنه مرضي لله تعالى بطريق الإحساس الروحاني، والشر منها أنه غير مرضي لله تعالى إحساساً روحانياً موافقاً لكتاب الله وسنة رسوله، وتصير محفوظاً وإن لم تكن معصوماً فحينئذٍ أنت قائمٌ بأمر الله تعالى على بصيرة منه، والله تعالى لا يأمر بالفحشاء ولا المنكر، فليس في أفعالك فحشاء ولا

منكر بل جميعها طاعات لله تعالى حتى ترجع إلى نفسك فتقوم بها، وتغفل عن قيامك بأمر الله تعالى على بصيرة، فتعود إلى فحشائك ومنكرك والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم (والحقيقة) أي: حقيقة الشريعة يعني حقيقة البيان الإلهي على ما هو عليه لا على حسب فهم القاصرين له فلا فرق بينها وبين الشريعة إلاّ بحسب كمال الفهم وقصوره، وكمال الفهم إنما يحصل للعبد من ربه بلا واسطة، وقصور الفهم يحصل للعبد من ربه بواسطة اعتماد العبد على نفسه واتكاله عليها، بتقدير الله تعالى عليه ذلك، فالله يضل من يشاء بنفس من يشاء ويهدي من يشاء به تعالى لا بنفس، ولا بغيرها، والنفس قائمة به تعالى، فإذا أضل بها كان هو المضل بلا واسطة إلا أنه تعالى أوجد في ذلك العبد الذي أراد الله أن يضله اعتبار مدخلية نفسه، واستقلالها فعامله الله تعالى بما فيه، فأعطاه خلقه ثم هداه إلى خلقه ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] والهداية تستعمل في الضلال أيضاً، قال تعالى: ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤] فهي في هذه الآية مطلقة في الخير والشر لمناسبة كل شيء (له) أي: الحقيقة لله سبحانه وتعالى وحده، لا يشاركه فيها مشارك، ولا ينازعه منازع لأن بيانه الحقيقي مختص به لا يعلمه أحد على ما هو عليه غيره تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] فإذا كان الدين الإسلام عند الله لا يعلمه أحد على ما هو عليه إلا الله ولهذا قال النبي ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[1] أي: يفهمه فيه لا يفهمه غيره تعالى لأن الدين عنده لا عند غيره حتى يفهمه ذلك الغير ودعا النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنه فقال: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل، ولو كان النبي ﷺ الذي هو عبد مخلوق فضّله الله تعالى على جميع العباد يقدر أن يفقه أحداً في الدين الذي عند الله، ما قال: اللهم فقهه في الدين، كما لم يقل: اللهم بلّغ أمتي أمرك ونهيك بل بلغهم هو ذلك، والله تعالى لا يفقه أحداً في الدين حتى يصير ذلك العبد عنده تعالى كما قال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ رَبِّكَ

(١) أخرجه البخاري (علم، ١٠)، (خمس، ٧)، (اعتصام، ١٠)، ومسلم (إمارة، ١٧٥)، (زكاة، ٩٨، ١٠٠)، والترمذي (علم، ٤)، وابن ماجه (مقدمة، ١٧)، والدارمي (مقدمة ٢٤)، (رقاق، ١)، والموطأ (قدر، ٨)، (وأحمد بن حنبل ١/٣٠٦، ٢/٢٣٤، ٤/٩٢، ٩٣، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠١).

لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝﴾ [القمر: ٥٤ و٥٥] وما دام العبد عند نفسه لا عند ربه فجميع فهمه في الدين قاصر، ومن قصوره عن فهم من هو عند ربه يظن أن ما فهمه هو وأمثاله من الدين الإلهي شريعة، وما فهمه من هو عند الله حقيقة، ولا شك في التفاوت الظاهر بينهما كالتفاوت بين الخطأ والصواب، ولكنّ ظنه ذلك فاسدٌ والدينُ الإلهي واحدٌ ولكن الصواب ليس كالخطأ، ولهذا ورد أنّ من اجتهد فأخطأ فله أجرٌ واحدٌ ومن اجتهد فأصاب فله أجران، فمن كانوا عند نفوسهم اجتهدوا كلهم فأخطأوا، فلهم أجر واحدٌ قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧] أي: من ذلك الفهم القاصر في الدين الإلهي. وقال تعالى في آية أخرى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، أي: بحسب قصورها، أي: لأنها نفس فهي قاصرة ضعيفة. وقال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ [الحديد: ٢٧] يعني: بفهمهم ديننا على خلاف ما هو عليه عندنا، ثم قال تعالى: ﴿ومَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٧] يعني: ما جعلناها مفروضة عليهم واعتبرناها منهم إلا لأنهم طلبوا بها مرضاة الله تعالى، أي: رضاه عنهم، وهم قاصرون لأنهم عند نفوسهم تقديراً منا عليهم فأتوا بما في وسعهم من الفهم فلهم أجرٌ واحد، وهو ابتغاء مرضاة الله تعالى لا ما فهموه، لأنه خطأ، والخطأ لا أجر له، ومن كانوا عند ربهم اجتهدوا أيضاً فأصابوا كلهم، فلهم أجران أجرُ الاجتهادِ لطلب مرضاة الله تعالى، وأجر الصواب الذي أفهمَهم إياه من هم عنده، وهو الله تعالى. فاجتهاد الفريق الأول يسمى عندهم شريعة، وهي معتبرة عند الله تعالى، وقد كلفهم الله تعالى بها، واجتهاد الفريق الثاني يسمى حقيقة عند الفريق الأول، ويسمى عند الفريق الثاني شريعة وحقيقة وقد كلفهم الله تعالى لها ولهذا قال (حتى تطلبها) أي: الحقيقة بالله تعالى طلباً ذوقياً وجدانياً لا فهماً تخييلياً، وهو معنى كون ذلك الطلب (به) أي: بالله سبحانه وتعالى لا بنفسك، ولا بحولك، ولا بقوتك، فإن النفس ليس في وسعها من الطلب غير التوجه بحولها وقوتها، وهما لا يقتضيان إلا فهم المطلوب، وتخيله لا ذوقه ووجدانه، والذوق والوجدان، لا يوصل إليهما إلاّ الله تعالى الذي لا حول ولا قوة لأحد إلاّ به، فإذا ترك العبد حوله وقوته اللذين له تعالى وطلبه به تعالى وحده لا بواسطة غيره، وجد

مطلوبه به وواصل محبوبه (له) أي: ذلك الطلب لأجل الله تعالى لا لأجل نفسك لتحصيل نعيمها أو النجاة من جحيمها أو للترقي في المقامات العالية والعروج في المراتب السامية، فإن ذلك كله قواطع وموانع كما سبق (عز) أي: امتنع عن الطلب بغيره تعالى، إذ لا مؤثر غيره مطلقاً فكل طالب إنما يطلب به تعالى، ولكن إما أنْ يعرف ذلك فيكون طلبه به تعالى أو لا يعرف ذلك وتحجبه ظلمة نفسه وكدورة طبعه، فلا يكون طلبه به تعالى بل بنفسه في زعمه فيعامله الله تعالى بزعمه ويحكم عليه بمقتضى علمه وعلى حسب حكمه كما قال عليه السلام: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى»[1] (وجل) أي: عظم عن كون الطلب لأجل غيره تعالى مطلقاً، إذ كل طالب لأجل غرض يستنظر من غرضه ذلك جلب نفع أو دفع ضر والنافعُ الدافعُ هو الله تعالى لا سواه، فالمقصود هو على كل حال لأنه خالق كل شيء، غير أنّ الطالب إما أن يعرف ذلك، فيكون طلبه لأجله تعالى، أو لا يعرف فيكون طلبه لأجل غيره تعالى في زعمه، ثم ذكر لما الشيخ رضي الله عنه الطلب في الموضعين نزه المطلوب الحق عن مشابهة كل مطلوب باطل مما سواه، قال ﷺ: أصدق كلمة قالها شاعر، قول لبيد:

---

(١) أخرجه البخاري في (صحيحه ١/ ٢، ٨/ ١٧٥، ٩/ ٢٩)، وأبو داود في (السنن ٢٢٠١)، والترمذي في (السنن ١٦٤٧)، والنسائي في (السنن «الطهارة ب ٥٩»)، (الإيمان والنذور ب ١٩)، وابن ماجة في (السنن ٤٢٢٧)، والشهاب في (المسند ١١٧١، ١١٧٢، ١١٧٣)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٢٥)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١/ ٤١، ٢١٥، ٢٩٨، ٢/ ١٤، ٦/ ٣٣١، ٧/ ٣٤١)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ١/ ٥٦)، وابن كثير في (التفسير ٢/ ٣٤٥)، وابن عبد البر في (التمهيد ٧/ ١٠٦، ٩/ ٢٠١)، وصاحب (شرح معاني الآثار ٣/ ٩٦)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٦/ ٣٤٢، ٨/ ٤٢)، (بغوي ١/ ٤٣١)، والحميدي في (المسند ٢٨)، وابن حجر في (فتح الباري ١/ ٩)، والبغوي في (شرح السنة ١/ ٤٠١)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ١)، وابن المبارك في (الزهد ٦٢)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢/ ٣٨٠، ٣٨١، ٣/ ١٠٠، ١٣٧، ٥/ ٢٤٥، ٢٤٦)، وابن حجر في (تلخيص الحبير ١/ ٥٥)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/ ٣٥١)، والشجري في (الأمالي ١/ ٩)، وابن كثير في (البداية والنهاية ١٠/ ١١٨، ١١/ ٥٥، ١٤/ ١٨٠)، وابن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله ٣/ ٩٦)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٤/ ٢٤٤، ٦/ ١٥٣، ٩/ ٣٢٦)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ٢/ ١٥، ٢٢٧)، وابن أبي حاتم الرازي في (علل الحديث ٣٦٢).

فقال (حيث) ذلك المطلوب الحق (لا حين) أي: لا زمان، والزمان أمر موهومٌ يفهم من ترتيبِ الكائنات في هذا الوجود بالتقديم والتأخير، يسمى بالساعة واليوم والليلة والأسبوع والشهر والسنة والقرن والحقب والدهر، وترتيب الكائنات بالتقديم والتأخير ليس ثابتاً لها في حضرة علم الله تعالى ولا في حضرة كلامه وإنما هي موجودة في هاتين الحضرتين وجوداً واحداً جامعاً محيطاً بها إحاطةً واحدة ثم في ظهورها عن هاتين الحضرتين تظهر مرتبة، يتقدم بعضها على بعض، ويتأخر بعضها عن بعض على حسب ما سبقت به الإرادة الأزلية، فأول شيء ظهر منها مساوٍ في القرب إلى الله تعالى لجميع ما بعده وبعضها أقرب إلى بعض من بعض وأبعد كذلك، فلا يتصور أن يكون لشيء من الأشياء مع الله تعالى زمان فكيف يكون لله تعالى زمان ولا يتصور أن يكون لأول شيء ظهر من الكائنات زمان، فكيف يكون لله تعالى زمان ولا يتصور أن يكون للزمان زمان فكيف يكون لله تعالى زمان (ولا أين) أي: لا مكان، والمكان هو الأمر الموهوم أيضاً، يفهم من تراكم الكائنات بعضها على بعض والتصاق بعضها ببعض، بحيث لا خلا موجود بل الكل ملأ، فإنَّ الأرض لاصقةٌ بالماء، وبعضها لاصق بالهواء، كالماء والهواء لاصقٌ بالنار، والنار لاصقة بفلك القمر، وجميع الأفلاك والأملاك العلوية لاصقٌ بعضها ببعض إلى الكرسي والعرش، والكرسي لاصق بالعرش، وكذلك سائر الكواكب، والمواليد الأرضية لاصقٌ بعضها بالأرض وبعضها بالماء وبعضها بالهواء وبعضها بالنار، وجميع الكائنات العلوية والسفلية متراكم بعضها على بعض، تراكم أجزاء الشيء الواحد بعضه على بعض. ثم أنَّ الشيء الأسفل يسمى مكاناً للشيء الأعلى منه، والأشياء المحيطة بالشيء الواحد تسمى حيزاً لذلك الشيء الواحد، وهكذا في كل شيء، ومجموع الكائنات كلها لا مكان لها ولا حيز لها، فكيف الله تعالى يكون له مكان أو حيز، ثم شرع في بيان الشريعة والحقيقة حيث ذكرهما فقال معقباً بالفاء (فالشريعة) المذكورة فيما سبق وأصلها مورد الماء يسمى شريعة، وسميت بذلك لأنها إذا عطشت الأمة ترد إليها فتروى منها (حدود) أي: مقادير قدرها الشارع لمصلحة العباد الدنيوية والأخروية ورتبها على أسباب محظورة، كالحد لشُربِ الخمر والزنا والسرقة ونحو ذلك، أو غير

لا حدّ ولا جهة.

القائمُ بالشريعة فقط تفضل عليه بالمجاهدة، والقائم بالحقيقة تفضل

محظورة كالصلاة والزكاة والصوم والحج بأوقاتها وما أشبه ذلك **(وجهات)** أي: اعتبارات، وهي إما جهات فعل كالفرض والواجب والنفل والصحة، وأما من جهات ترك كالحرام والمكروه والبطلان ونحو ذلك **(والحقيقة)** التي تقدم ذكرها وحقيقة الشيء في الأصل ماهيته التي هو بها ثابت في نفسه لا باعتبار علم العالم به، فإن العالم به ما علم منه إلا مقدار قوة علمه وضعفه وما أعطيه من العلم فقد علم استعداده لا حقيقة ذلك الشيء، بل قامت حقيقة ذلك الشيء كله مقام المرآة، التي رأى فيها مقدار استعداده وأعطته من العلم بها مقدار صورة ذلك الاستعداد، الذي فيه غير هذا لا يكون أبداً فالعلم بحقيقة شيء من الأشياء لا يكون أبداً إلا بطريق اتحادك مع ذلك الشيء في ماهيته لا من حيث علمه هو بها في نفسه، فإنه قد يعلمها على حسب استعداده أيضاً فيكون كعلم غيره بها، بل اتحادك به من حيث ماهيته الثابتة له في الوجود المتميزة عن غيرها بعوارضها، بل ترجع إلى أصلك وأصلها ثم تنزل عليها من حيث أصلها الذي هو أصلك فتتحد بها فتعلمها على حسب ما هي عليه علماً لا تعلمه هي بنفسها لنفسها، فهذه الحالة هي الحقيقة عند علماء الحقيقة، ولهذا قال **(لا حد)** أي: للحقيقة، لأن الحدود قيود الماهيات المطلقة كلها، والعلم بالقيود ليس علماً بالحقيقة، بل العلم بالحقيقة مطلق عن القيود، والمطلق عن القيود لا حدود له، فلا حد للحقيقة **(ولا جهة)** لها أيضاً لأن الجهات اعتبارات الماهيات المطلقة والعلم بالاعتبارات ليس هو علماً بالحقيقة، بل العلم بالحقيقة مطلق عن جميع الاعتبارات فلا جهة للحقيقة. ثم شرع في ذكر فضيلة الحقيقة على الشريعة فقال **(القائم)** أي: الموجود الثابت **(بالشريعة)** المحمدية المذكورة، والمراد المدرك لمواضع نفوذ أحكامها منه، ومن غيره العامل بها فعلاً وتركاً عن علم وخشوع **(فقط)** أي: دون الحقيقة **(تفضل)** أي: أنعم الله تعالى **(عليه بالمجاهدة)** التي هي علمه وعمله لأنه مع نفسه حيث هو في مرتبة الشرك الخفي، فالمجاهدة نعمة من الله تعالى عليه، وفضل حيث يسلم بها من المهالك فهي مجاهدة لنفسه من الشر الخفي، قال تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [العنكبوت: ٦] فهي مرتبة عالية بالنسبة إليه.

عليه بالمنة، وشتانَ ما بين المجاهدة والمنة، القائم مع المجاهدة موجود،

ولهذا تفضل الله تعالى عليه بها **(والقائم)** أي: الموجود الثابت **(بالحقيقة)** أي: الحقيقة الشرعية المذكورة يعني المدرك للأمر الإلهي الذي قامت به السموات والأرض وما بينهما على ما هو عليه إدراكاً غيبياً عنه بعلم أزلي لله لا له ولم يقل فقط كما قال في الشريعة لأن الحقيقة لا يمكن أن تكون بلا شريعة أبداً بخلاف الشريعة تكون بلا حقيقة، ولهذا احتاج إلى قوله فقط في الشريعة، ولم يحتج إليه في الحقيقة **(تفضل)** الله تعالى **(عليه بالمنة)** التي هي معرفة أمر الله الذي قام به كل شيء وهي الحقيقة، والحاصل أن لله تعالى عالمين أنتجهما تجليه وظهوره بذاته لذاته الأول يسمى عالم الأمر، وهو واحد كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر: ٥٠] ومعرفته تسمى علم الحقيقة، والثاني يسمى عالم الخلق وهو كثير كما قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] ومعرفته تسمى علم الشريعة والمراد بمعرفته المعرفة المطابقة لما هو عند الله تعالى، وهي معرفة الإيمان لا معرفة العقل والحس وكلا العالمين لله تعالى كما قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧] وقال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٨٤] وقال تعالى لنبيه ﷺ: «ليس لك من الأمر شيء والحقيقة والشريعة على الله تعالى وهما شيء واحد» مقصود للمكلف بالتكليف كما أن الأمر والخلق واحد وإن اتحد الأمر وتعدد الخلق، فالخلق صور الأمر، والأمر كنه ذات الخلق وكل شيء من الخلق هو صورة الأمر الواحد، وقد اتحدت ذات الأمر وكثرت صوره لكمال تنزيهه تعالى، فإذا كانت صورة من صور الخلق صورة الأمر ظهر ذلك الأمر بها، فإذا كانت صورة أخرى تضاد تلك الصورة صورة ذلك الأمر أيضاً تنزه الأمر في نفسه عن تلك الصورة الأولى بسبب هذه الصورة الثانية التي هي مضادة لتلك الصورة الأولى، وتنزه أيضاً عن هذه الصورة الثانية بسبب تلك الصورة الأولى التي هي مضادة لها، وهكذا في جميع صور العالم العلوي والعالم السفلي، فثبوت الصورة للأمر الإلهي تشبيه وهو في الحقيقة تنزيه كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] والتسبيح هو التنزيه، فكل شيء صورة ذلك الأمر الإلهي الرحماني القديم الذي قام به كل شيء الذي كنى عنه تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النحل: ٤٠] وإذا كان كل شيء صورته

كان مشبهاً لا بل كان منزهاً، ولكن لا يفقه الناس تنزيه كل شيء إذ كل شيء له تنزيه بلسان خاص به لا يفهمه غير ذلك الشيء، فالتشبيه تنزيه والتنزيه تشبيه ولا يفقه ذلك إلا الإنسان الكامل، وأما غيره من القاصرين فيطعن بعضهم على بعضهم، ويلعن بعضهم بعضاً، وهو يرى ذلك منهم كمال التنزيه لكمال الضدية فله عمله ولهم أعمالهم هم بريئون مما يعمل، وهو بريء مما يعملون، قال النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى» الحديث. وعلم الحقيقة هو الذي أمر الله تعالى نبيه عليه السلام أن يطلب الزيادة منه بقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] أي: علماً بك إذ العلم بغيره راجع في الحقيقة إلى العلم به، باعتبار أن كل شيء هو صورة ذلك الأمر الواحد كما ذكرنا ولا اعتداد بالعلم بالشيء من حيث ظهوره فقط من غير معرفة كنه ذات ذلك الشيء، بل هذا العلم بهذه الطريقة القاصرة ليس بعلم أصلاً كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩] مع إنّا نعلم بأنفسنا هذا العلم القاصر الذي هو علم الأشياء من حيث ظهورها فقط كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٧] فنفى الله تعالى أن يكون هذا علماً فتعين أن يكون أمره لنبيه عليه السلام بطلب الزيادة من العلم هو أمره بالعلم به تعالى، وهو علم الحقيقة كما ذكرنا. وأما علم الشريعة فلم يأمر الله تعالى نبيه عليه السلام بطلب الزيادة منه بل كان النبي عليه الصلاة والسلام ينهى الصحابة رضي الله عنهم عن كثرة سؤالهم عنه ويقول لهم: «اتركوني ما تركتكم»، ولما نزلت آية: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] سأل الأقرع ابن حابس النبي ﷺ: أفي كل عام يا رسول الله؟ فلامته الصحابة رضي الله تعالى عنهم على سؤاله هذا مخافة أن تنزل آية في كل عام مع إن سؤاله في علم الشريعة، وقد أنزل الله تعالى على النبي ﷺ حين كانت الصحابة رضي الله عنهم يكثرون السؤال عن أحكام الشريعة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْـَٔلُوا عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ . . .﴾ الآية [المائدة: ١٠١]. قال البيضاوي رحمه الله تعالى: روي أنه لما نزلت: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] قال سراقة بن مالك رضي الله عنه: أكل عام؟ فأعرض عنه رسول الله ﷺ حتى أعاد ثلاثاً، فقال: لا، ولو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم، فاتركوني ما تركتكم، فنزلت آية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْـَٔلُوا عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ . . .﴾ الخ. وعن ابن عباس رضي

الله عنهما أنه ﷺ كان يخطب ذات يوم غضباناً من كثرة ما يسألونه عنه مما لا يعنيهم فلما أكثروا عليه غضب ثم قال للناس: «سلوني عما شئتم، فلا أسأل عن شيء إلا أجبت. فقال رجل: أين أنا؟ فقال: في النار. فقال آخر: من أبي؟ فقام حذافة فقام آخر فقال: من أبي؟ فقال: أبوك سالم مولى شيبة. وكان يدعى لغير أبيه فلما رأى عمر رضي الله عنه ما في وجهه فقال: يا رسول الله إنّا لنتوب إلى الله تعالى عزّ وجل»، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ . . .﴾ الآية [المائدة: ١٠١] اهـ. والحاصل أن مسائل علم الشريعة إذا كانت واقعة حال يجب السؤال عنها، ويجب تعليمها كما قال الفقهاء إن من أراد البيع والشراء يجب عليه تعلم كتاب البيوع، وكذلك من أراد النكاح يتعلم كتابه، ومثل هذا الطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج ونحو ذلك، وأما ما زاد على ذلك مما لا حاجة له إليه في ذلك الوقت لا يجب عليه تعلمه، ولا السؤال عنه ولا أمره الله تعالى بالسؤال عنه إلا وقت الاحتياج إليه للعمل به لا لعلمه فقط من غير عمل به.

فالزيادة من علم الشريعة ليست مطلوبة بخلاف الزيادة من علم الحقيقة، فإن العبد كلما ازداد علماً بالله تعالى ازداد خوفاً منه تعالى وخشية وهيبة وتعظيماً وقرباً إليه تعالى فيزكوا عمله ويكثر ثوابه وتزداد مزيته وترتفع رتبته عند الله تعالى. قال النبي ﷺ: «ركعتان من عالم بالله عز وجل أفضل من ألف ركعة من جاهل به»، وأما علم الشريعة فكلما ازداد منه من غير عمل به ازداد حجباً عليه من الله تعالى، وازداد طرداً وبعداً عن الله تعالى، وازداد كبراً في نفسه وافتخاراً على الناس وإعجاباً بعلمه واتكالاً على غير الله تعالى من علمه القاصر وعلمه الذي لا عمل له به، فإن قلت: ليس كلامنا مع غير العامل بعلمه بل مع العامل به، قلت: نحن كلامنا أيضاً في علم الشريعة فقط من غير معرفة علم الحقيقة، فإن صاحب علم الشريعة من غير حقيقة غير عامل بعلمه لأنه مُشرك شركاً خفياً، ولا شرك في الحقيقة مطلقاً، وهو لا يعرف غير أحكام الله تعالى التي حكم بها على كل شيء وأما معرفته بالله تعالى التي تزيل عنه الشرك الخفي، وبحقائق الأشياء على ما هي عليه، فلا يعرف ذلك إلا كما تعرف العامة من أهل الأسواق وغيرهم، ولا يعرف نفسه أيضاً على ما هي عليه، إذ لو عرفها لعرف ربه

ولعرف كل شيء ولشهدَ الله تعالى في كل شيء كما كان يقول بعضهم ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله فيه، ومعلوم أن رؤية الله تعالى عند هذا القائل من غير تشبيه ولا تكييف، وكيف يقدر هذا الفقيه، الذي هو والعامة سواء في معرفة الله تعالى، غير أنه تميز عن العامة بمعرفة أحكام الله تعالى التي حكم بها على كل شيء من غير زيادة معرفة بالحاكم، ولا بكل شيء أن يرى الله تعالى في كل شيء مع التنزيه التام إلا بطريق الاستدلال كرؤية العميان مع أن الله تعالى هو الظاهر على ما هو عليه، من غير تغيير، ومع ذلك هو الباطن فلا يحيطون به علماً ولا يدركونه فهماً ولي من النظم في هذا المعنى:

قد بالغَ في الظهور والكتمان حتى لقد حازت أولو العرفان

والسرّ في التحقيق كالإعلان أودعه في هذه الأكوان

(وشتان) أي: بعد وعدم تساوي (ما بين المجاهدة) التي هي مكابدة النفس وحبسها في العبادة الظاهرة والباطنة الممنون بها من الله تعالى على من قام بالشريعة فقط كما ذكرنا (والمنة) التي هي النعمة العظيمة، والفضيلة الجسيمة الممنون بها من الله تعالى على من قام بالحقيقة مع الشريعة كما سبق، وذلك لأن المجاهدة تعب والمنة راحة، والمجاهدة تحصيل والمنة حصول والمجاهدة معها شرك خفي والمنة معها إيمان ويقين، والمجاهدة خصام، والمنة مصالحة إلى غير ذلك مما لا يخفى على المريد السالك.

ثم أشار الشيخ رضي الله عنه إلى شيء من الفرق بينهما فقال (القائم مع المجاهدة) أي: المكابد لها المواظب عليها، وهو المشتغل بعبادة الله ليلاً ونهاراً علماً وعملاً من غير معرفة الحقيقة (موجود) آخر في نفسه مع الله تعالى، يعتقد ثلاثة أشياء موجودة على السواء هو في نفسه وعبادته التي يأتي بها وربه المعبود له، فالله تعالى عنده واحد من هذه الثلاثة، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] وإن كان نزول هذه الآية في حق النصارى، ولكن إشارتها تقتضي ما ذكرنا في العابد من غير معرفة الحقيقة وكذلك جميع الأعمال التي يفعلها العابد الجاهل بمعرفة الحقيقة سواء كانت عبادات أو اعتقادات أو عادات أو معاملات يفعلها وهو

يعتقد التثليث فيها وإن كان يعلم أن شيئين من هذه الثلاثة مخلوقان وهما نفسه وعمله، والشيء الثالث قديم، وهو ربه الذي خلق كل شيء أليس أنه في اعتقاده يجعل الله تعالى واحداً ثالثاً لهذين الشيئين، يغاير هذين الشيئين بالذات والصفات، وأما قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧] أي: منفرد عنهم في رتبة أخرى أعلى من رتبتهم بحيث لا وجود لهم معه لامتيازه عنهم في رتبة أخرى من مراتب العدد، وههنا لو اعتقد العابد انفراد الله تعالى بمرتبة أخرى عنه، وعن عمله لاعتقد أنه وإن عمله مفقود معدوم بالنظر إلى وجود الله تعالى، بحيث تبقى مرتبته الأولى ومرتبة عمله الثانية متساويتين عنده في الدخول تحت مرتبة واحدة، وهي الاثنان ورتبة الله تعالى رتبة أولى أخرى ثالثة لهذين الاثنين غير مساوية لهما كمساواتهما في مرتبة الاثنين ولا يمكن أن يعتقد أنه وإن عمله مفقود معدوم بالنظر إلى وجود الله تعالى الثالث لهذين الاثنين بالنظر إلى وجود الله تعالى عن كشف وشهود إلا إذا كان له علم بالحقيقة، فيكون صاحب شريعة وحقيقة، وهو المطلوب (والقائم مع المنة) من الله تعالى عليه وهو صاحب شهود الأمر الإلهي في كل شيء لا عبادة له عند نفسه ولا علم له عنده غير أن جميع ما يظهر منه من الطاعات والعلوم الإلهية يشهدها مناً من الله تعالى عليه لا أعمالاً صادرة عنه، لأن العمل يحتاج إلى عامل والعامل (مفقود) لا وجود له عند نفسه، والموجود عنده هو الله تعالى وحده فقد تخلص من التثليث في عمله وثبت له التوحيد على كل حال وعبد ربه، وجاهد نفسه حتى أتاه اليقين ففقد عن وجوده، وظهر له أن حقيقة العابد منه هي حقيقة معبوده فانقلبت عبادته لنفسه منة من الله تعالى عليه، وهدية مرسلة من ربه إليه كما قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩] وقد عبده حتى أتاه اليقين وامتثل أمر رب العالمين، ثم صارت عبادته شكراً من الله تعالى لله تعالى فهو الشكور، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] والشكور هو الله تعالى لأنه من أسمائه تعالى وقد سئل النبي ﷺ عن كثرة عبادته وتهجده، وقد غفر الله تعالى له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً، ولم يقل عبداً عابداً لأن اليقين أتاه فانتهت عبادته المأمور بها ﷺ وانتقل إلى الشكر فهو العبد الشكور فقد فرق بذكر العبد، وجمع

بذكر الشكور، وهذه حالته ﷺ فرق وجمع لا فرق فقط ولا جمع فقط، والله الهادي إلى صراط مستقيم، ثم شرع الشيخ قدس الله سره في ذكر المقامات الثلاثة مقام أهل البداية، ومقام أهل العناية، ومقام أهل النهاية فقال:

(الأعمال) وهي فعل الأوامر القطعية والظنية والكف عن المناهي القطعية والظنية على وجه الإخلاص والخشوع لله تعالى (متعلقة بالشرع الشريف) أي: منوطة به وتابعة له ومعلومة منه وموقوفة عليه وراجعة في معرفتها إليه بحيث لا حركة للمكلف ولا سكون في ظاهره وباطنه مما يسمى عملاً واعتقاداً إلا وله في الشرع الشريف حكم مخصوص لا يعلم إلا من الشرع، ولا يعرف إلا منه ولهذا كانت معرفة الشرع الشريف أول المقامات في السير إلى الله تعالى ما لم يندرج العبد في المقام الثاني، إذا كان من أهل الجذب الصحيح اعتناء من الله تعالى به، والواقف في هذا المقام الأول منقطع عن الله تعالى لعدم ترقيه إلى ما بعده وأشار إلى المقام الثاني بقوله (والتوكل) على الله تعالى ظاهراً وباطناً، بترك الاهتمام والاعتماد على غير الله من جميع الأسباب الشرعية كالطاعات للثواب، والمخالفات للعقاب، أو العادية كالأكل للشبع، وشرب الماء للري ولبس الثوب لستر العورة، أو دفع ألم البرد أو الحر ونحو ذلك، والعقلية كاستعمال الحواس لإدراك الجزئيات أو الفكر، لإدراك الكليات، وما أشبه ذلك فإن اعتماد المكلف بقلبه على شيء من هذه الأسباب، واتكاله عليه وطمأنينة قلبه به يمنعه من التوكل على الله تعالى لا الاشتغال بهذه الأسباب كلها مع عدم الاعتماد عليها بالقلب، وعدم طمأنينة القلب بها فإن ذلك لا يمنع من التوكل عليه تعالى، وهذا هو المطلوب من المكلف في معاطاة الأسباب دون الأول (متعلق بالإيمان) بالله تعالى لأنه خالق الوجود كله، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] وأن لا تأثير لما سواه تعالى مطلقاً في أثر ما يعني أن التوكل منوط بذلك، وتابع له ومأخوذ منه وموقوف حصوله عليه ومستند في وجوده إليه بحيث لا يمكن المكلف أن يتوكل عليه تعالى إلا بعد إيمانه وتصديقه أنه تعالى هو المنفرد وحده بإيجاد جميع الكائنات وتحريكها وتسكينها في خير أو شر أو نفع أو ضر ولا تأثير لسبب من الأسباب مطلقاً، وإذا لم يكن عند المكلف استحضار جميع ذلك، فإن التوكل على الله تعالى بعيد عنه غير ممكن

حصوله له لإعراضه عن الباب الموصل إليه تعالى، وعلى الله قصد السبيل والواقف في هذا المقام الثاني منقطع عن الله تعالى أيضاً لعدم ترقيه إلى ما بعده بما هو المقصود. وأشار إلى المقام الثالث بقوله (والتوحيد) أي: إفراد الله تعالى بالوحدانية في الوجود فلا وجود لشيء من الأشياء مطلقاً إلا بوجوده، سبحانه وتعالى، بحيث أن وجوده تعالى هو ذلك الوجود الذي وجد به ذلك الشيء ولا وجود لذلك الشيء من نفسه بوجود آخر غير وجوده تعالى. أما ذلك الشيء في ذاته وتشخصه فليس هو وجود الله تعالى لأنه هالك باطل ووجوده تعالى حق ثابت. قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] أي: إلا ذاته، وهي وجوده القديم الذي قام به كل شيء ولهذا لم يختلف وجود كل شيء لأنه واحد واختلفت الأشياء وتعددت وتكثرت وتميز بعضها عن بعض من حيث ماهياتها وصورها ومقاديرها وأرواحها ونفوسها لأنها غيره تعالى وتقدس عنها علواً كبيراً.

وقال النبي ﷺ: «أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد:

ألا كـل شـيء مـا خـلا الله بـاطـل»[1]

والباطل في مقابلة الحق. وقال تعالى: ﴿خلق السموات والأرض بالحق﴾ أي: أوجدهما به تعالى فهو وجودها الذي هي موجودة به بحيث لو زال زالت ولم يبق لها وجود آخر غيره تعالى توجد به، فجميع الأشياء معدومة هالكة باطلة لا وجدت ولا توجد ولا هي موجودة ولا شمت رائحة الوجود مطلقاً لأن الوجود قديم حق ويتعالى ويتقدس القديم الحق أن يحل في هذه الأشياء أو يتحد بها، وإنما أظهر تجليه عليها لها التجلي القديم الأزلي فلما رأت تجليه عليها توهمت أنها موجودة معه بوجود آخر، غير وجوده، وهي موجودة به لا معه فالوجود له والماهيات والمقادير والكيفيات والصور لها لا له تعالى، فهي على ما هي عليه من العدم وهو على ما هو عليه من الوجود، ورؤيتها موجودة إنما هو مجرد وهم منها وغفلة، وعدم معرفة بما هو عليه الأمر في نفسه، وهذه الرؤية الوهمية هي الشرك الخفي، الذي ينافي التوحيد الصحيح، وقد

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٨/ ٤٣)، ومسلم في الصحيح (الشعر المقدمة ٣)، وابن ماجة في (السنن الكبرى ٣٧٥٧)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٣٣٩)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٤٧٨٦)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٧/ ٢٤٩).

متعلق بالكشف الصحيح.

الناسُ تائهونَ عَن الحق بالعقلِ، وتالهونَ عن الآخرةِ بالهوى،

استولت على غالب الناس وأكثر المكلفين. قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]، (متعلق بالكشف الصحيح) الرافع لهذه الرؤية الوهمية المذكورة يعني منوط به وتابع له، وموقوف عليه، ومأخوذ منه، ومستند إليه، والكشف هو رفع الحجاب عن عين القلب ورؤية الأشياء على ما هي عليه فقد يتعلق بالإخبار عن الأشياء المستقبلة والماضية البعيدة عن الحضور أو الحاضرة التي لا تعلم في العادة، فيكون كشفاً كونياً معه حجاب عن الحق تعالى لتعليقه بغيره تعالى والالتفات إلى هذا النوع من الكشف نقصان في كمال أهل الله تعالى ما لم يوجد منهم بلا قصد إليه والكشف المعتبر شهود الله تعالى في كل شيء عن التنزيه التام وعدم الغفلة عنه في جميع الأحوال ثم الكشف به تعالى عن كل شيء وشهود كل شيء قائماً بالله تعالى موجوداً بوجود الله تعالى متحركاً ساكناً به تعالى.

وللكشف أنواع شتى لا تحصل فإن لكل ذوقاً خاصاً وكشفاً مستقلاً على حسب استعداده وقبوله لتجلي الحق تعالى عليه. ثم شرع الشيخ رضي الله عنه في ذكر أحوال المحجوبين وبيان ما هم عليه من الانحراف عن الحق المبين فقال:

(الناس) أي: الموجودون عند نفوسهم من الخلق المكلفين مشتق من ناس، إذا تحرك ويقال للخلق وهو اصطلاح القرآن العظيم في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١] في كل موضع، أي: يا أيها المكلفون المتحركون بأنفسهم في زعمهم لا بربهم فكيف دخول العارفين القائمين بربهم معهم في مسمى الناس من باب التغليب للأكثر على الأقل في الآية دون عبارة الشيخ قدس الله سره.

ولهذا قالوا: إن كل آية فيها ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهي خطاب لأهل مكة لأن فيهم الكافرين والمؤمنين والكافرون أكثر وكل آية فيها ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ١٠٤] فهي خطاب لأهل المدينة والمقصود بها المؤمنون خاصة وهو اصطلاح قوم في الآيات المكية والمدنية (تائهون) أي: واقعون في التيه والحيرة معرضون (عن الحق) سبحانه وتعالى القديم الذي خلق السموات والأرض أو ما هو في مقابلة الباطل مما هو أعم من ذلك (بالعقل) وهو الإدراك الذي يعقل الأشياء بصورها فيه أي: يربطها، وهو

نور خلقه الله تعالى للروح بمنزلة اللسان للجسد يقبل الزيادة والنقصان اعتمد الناس عليه في معرفة الله تعالى فضلوا وأضلوا وفي معرفة الأنبياء عليهم السلام واليوم الآخر وبقية السمعيات ففهموا خلاف المقصود وآمنوا بغير المراد، وفي معرفة الشريعة والدين اعتقاداً وعلماً وعملاً فابتدعوا وخالفوا الكتاب والسنة وهم لا يشعرون بحيث لو سمعوا حقيقة معنى ذلك على الوجه المطابق ممن كشف الله تعالى له عن المعنى المراد وتولى سبحانه تعليمه وأراد به خيراً ففقهه في الدين، وألهمه رشده كما جاء في الحديث الشريف: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويلهمه رشده» لجحدوا ذلك ولم يفهموا ما فهمه من ذلك ولا فقهوا ما فقه من حقيقة المطلوب، لأن الله تعالى لا يريد بهم خيراً كما هو مفهوم المخالفة من لفظ الحديث المذكور، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ...﴾ الآية [المائدة: ٤١] فتراهم يغالطون أنفسهم ويقولون شيء لا يعقل كيف نقبله وندين الله به، وهذا الكلام كلام المجانين مع أنهم يعتقدون أن دين الله تعالى ليس بأمر عقلي، وإنما هو من الوحي الخارج عن أطوار العقول، وما قولهم ذلك فيمن فقهه الله في الدين وألهمه رشده إلا مثل القوم الذين قالوا في نبيهم عليه السلام أنه معلم مجنون وقالوا أم به جنة؟. قال فرعون: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون، وسبب ذلك في حق النبي عليه السلام أنه جاء من الله بما لا تقبله العقول، ولا نقدر على إدراكه إلا بتفهيم الله تعالى، وتعليمه، وهكذا دين الله تعالى من أول الدنيا إلى آخرها، فليس في قوة العقل إدراك ذلك بنفسه، إلا بتعليم الله تعالى له وتفهيمه ذلك فالعقل مخلوق في الإنسان لقبول ما يفرض الله عليه من أمر الدين والشريعة فيصدق بجميع ذلك إيماناً بالغيب، فإذا عرض الله عليه المعنى الإلهي الصحيح بطرق الفيض، أي الفتح على قلب السالك بالصدق في طريق الله تعالى والإلهام قبل ذلك فكان له فقهاً في الدين وإلهاماً لرشده أو ما أنه يخوض بفكره مع الخائضين، فلا يباح له لأنه يهلك مع الهالكين (و) الناس (تائهون) أيضاً (عن الآخرة) أي: منازلها العالية ومراتبها السامية (بالهوى) أي: بميل نفوسهم وتعشقها بما سوى الله تعالى من نعيم جنة أو نجاة من نار أو محبة طاعة أو اجتناب معصية أو شغف بالوصول إليه تعالى وتحصيل القرب لديه، فإن ذلك كله هوى نفساني وميل إلى غير الله تعالى وهو حجاب وطرد وبُعد عن الله تعالى، وصاحب

فمتى طلبت الحق بالعقل فقد ضللت، ومتى طلبتَ الآخرةَ بالهوى فقد ضللت.

هذه الحالة إن سلم له الإيمان بالله تعالى عن العمى والغفلة كان أدنى أهل الجنة كلهم وإن سلب عنه بقلة أدبه مع الله تعالى لمحبته لما سواه في زعمه خلد في النار أبد الآبدين، وقولي في زعمه لأن المحبة لا تكون إلا لله تعالى والميل النفساني لا يكون إلا له تعالى سواء جهل ذلك المحب أو عرفه، فمحبته الغير والميل الغير إنما هو من الغير ولا غير إلا في الزعم للجهل بحقيقة الأمر. قال النبي ﷺ: «حبك الشيء يعمي ويصم»، وأضاف: «الحب إليك لزعمك المغايرة بنفسك» ثم ذكر الشيء مع أنه هالك إلا وجه الحق تعالى فالعمى والصمم عن وجه الحق تعالى إلى نفس المحب ما كان العمى والصمم عن وجه الشيء إلى نفس المحب، وإلا لكانت تلك المحبة بعينها هي محبة الله تعالى لنفسه ظهرت ظهوراً خاصاً في الحضرة الإلهية خاصة، وآخر كلمة سمعتها من فم شيخ من مشايخي في طريق الله تعالى رحمه الله تعالى أن قال لي: المحبة ليست إلا لله تعالى أو كلاماً هذا معناه، ثم انقطع الكلام بيني وبينه فعرفت ما أشار إليه رحمه الله تعالى من معان كثيرة منها ما ذكرناه في هذا الموضع والله ولي التوفيق. ثم بين رضي الله عنه، ما سبق بقوله **(فمتى طلبت)** يا أيها المريد كما طلبت الناس **(الحق)** سبحانه وتعالى أو ما طلب منك معرفته شرعاً **(بالعقل)** بأن خضت به في معرفة ذلك معتمداً على قوة إدراكه مستمداً منه معرضاً عن الاستمداد من الله تعالى وحده **(فقد ضللت)** عن الصراط المستقيم ووقعت في الزيغ عن سواء الطريق القويم، حتى تطلب ذلك بربك لا بعقلك من ربك لا من عقلك، ويمن الله تعالى عليك بفضله إن شاء، فيهديك إليه صراطاً مستقيماً وطريقاً قويماً ويتولى تعليمك بنفسه، ويستخلصك لشهود حضرة قدسه فيحلك حينئذ من عقال عقلك ويخرجك من ظلمة جهلك **(ومتى طلبت الآخرة)** أن تكون فيها مرتقياً إلى الدرجات العاليات والمراتب الساميات كما طلبت الناس **(بالهوى)** أي: بما تميل إليه نفسك من الطاعات فضلاً عن المباحات والمخالفات **(فقد ضللت)** عما طلبت، وذهلت عما قصدت، لأن ذلك لا يكون بهوى النفس قطعاً هيهات هيهات وإنما ذلك بتخليص القيام بالرب سبحانه وتعالى في جميع الأحوال الظاهرة والباطنة وعزل النفس عن تولية ذلك بالكلية بحيث لا تمتثل أمر ربك بنفسك ولا تجتنب نهيه بنفسك أيضاً وتعتقد أن امتثالك بنفسك أو اجتنابك

بنفسك شرك بربك أقبح عندك من معصية ترك امتثالك وعدم اجتنابك، لأن المعصية دون الشرك بيقين والله عليم بالمتقين فإذا تم لك القيام بربك في أعمالك كلها ظاهراً وباطناً فقد حصلت على أعلى الدرجات في الآخرة وكنت مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. واعلم أن كل من لم يعبد ربه بربه ممتثلاً أمره به مجتنباً نهيه به، فهو عابده بهوى نفسه بل عابد هو نفسه فهو عبد هواه لا عبد مولاه كما دخل طائفة من الفقهاء منكرين على الغوث رضي الله عنه ببغداد فقال لهم: مرحباً بعبيد عبدي، فاشتد إنكارهم عليه لزعمهم عند نفوسهم أنهم عبيد الله تعالى، فأجابهم بعض الفقراء: أنكم عبيد الهوى لامتثالكم أمر نفوسكم لقيامكم بها لا بربكم والهوى عبده لامتثال أمر ربه لا أمر نفسه لقيامه بربه لا بنفسه فهو مسلم له تعالى لا حركة له، ولا سكون ظاهراً وباطناً إلا بربه لا بنفسه وأنتم منازعون لله تعالى تتحركون بنفوسكم، وتسكنون بها في بواطنكم وظواهركم غافلين عن شهود الله تعالى فأنتم عبيد الهوى دونه تعالى. قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣] فعبيد الهوى يعلمون أنهم بيد الله تعالى يقلِّبهم كيف يشاء بقدرته وإرادته ولكن الله ختم على سمعهم فلم يسمعوا من الحق ما يسمعونه وختم على قلوبهم فلم يشهدوا من الحق سبحانه ما يشهدونه، وجعل على بصرهم غشاوة فلم يروا الحق تعالى فيما يرونه مع وجود علمهم به تعالى فهم يسمعون من غيره، ويشهدون غيره، ويرون غيره، ويعلمون أنه خالق كل شيء فقد أضلهم الله على علم فمن يهديهم من بعد الله والله بصير بالعباد. وقال تعالى لداود عليه السلام: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] أي: احكم بربك الحق لا بنفسك فإن الحاكم هو الله تعالى ولكن نفسك مظهراً لحكمه ولا تتبع الهوى أي: هوى نفسك في الحكم فلا تحكم بها أي: بقوتها فتضل عن سبيل الله أي: عن طريقه المستقيم. وكذلك أهل الله تعالى إلى يوم القيامة لا يحكمون على شيء مطلقاً بأنفسهم بل بربهم عز وجل فهم يحكمون بالحق سواء كان حكماً شرعياً أو عقلياً أو عادياً فلم يتبعوا الهوى فلم يضلوا عن سبيل الله تعالى، بل اهتدوا إليه سبحانه وتعالى وما سواهم ضالون. قال الله تعالى: ﴿وَمَا

المؤمنُ ينظرُ بنورِ الله، والعارفُ ينظرُ به إليه.

رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٢] يعني: إن كانوا هم غافلين عما يعملون.

(المؤمن) المصدق بوجود الله تعالى على الغيب الوجود المطلق موصوفاً بالصفات العلية مسمى بالأسماء الحسنى له أحكام أزلية وأفعال قديمة أبدية، مع الاعتراف ظاهراً وباطناً بالعجز عن معرفة شيء من ذلك تسليماً لله رب العالمين من غير سؤال عن شيء من ذلك، ولا فهم لشيء منه، ولا طمع في الباطن في معرفة ذلك، ولا شك ولا تردد فيه وهو إيمان السلف الصالحين من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين قبل ظهور المبتدعة في الدين الخائضين بعقولهم وأنظارهم فيما هم لا يزالون عنه زائغين ولو صبروا حتى يخرج إليهم الحق المبين من جانب الله تعالى لا بد من جهة عقولهم لكان خيراً لهم كما صبر السلف رضي الله عنهم وآمنوا بالغيب معترفين بكمال العجز عنه حتى فقههم الله في الدين وألهمهم رشدهم حسب ما ورد به الحديث الشريف (ينظر) بحسه وعقله في المحسوسات والمعقولات قائماً (بنور) أي: وجود (الله) عز وجل الذي نوَّر به جميع الكائنات أي: أوجدها من كتم العدم.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: ٣٥] أي: منورهما بنوره القديم الذي لا يشبه جميع الأنوار إذ ليس من جنس الأشعة ولا متلون بلون ولا بمتصل بما أشرق عليه ولا بمنفصل عنه بل هو وجود حق تنصبغ به المعدومات فتظهر موجودة من غير اتصال بها ولا انفصال عنها، قال تعالى: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨﴾ [البقرة: ١٣٨] فإذا تحقق المؤمن الناظر بهذا النور وجد النور على ما هو عليه من عدم الاتصال والانفصال ووجد المعدومات كلها على ما هي عليه من العدم الأصلي وهو من جملتها فيترقى من مقام إيمانه إلى مقام معرفته فيقال فيه كما قال الشيخ رضي الله عنه (والعارف) بالله تعالى صاحب الكشف والشهود الذي صار كله نوراً كما وردَ في الحديث عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه: «اللهم اجعل لي نوراً في قلبي ونوراً في قبري ونوراً من بين يدي ونوراً من خلفي ونوراً عن يميني ونوراً عن شمالي ونوراً من فوقي ونوراً من تحتي ونوراً في سمعي ونوراً في بصري ونوراً في شعري ونوراً في بشري ونوراً في لحمي ونوراً في دمي ونوراً في عظامي اللهم أعظم لي نوراً واعطني نوراً واجعل لي نوراً واجعلني نوراً»، ومعنى ذلك

أن تجعلني أدرك بك وأسمع بك وأبصر بك وأحفظ بك من جميع جهاتي، وأستنير بك في سائر أحوالي وأطواري، وأقوم بك في عالم دمي وعظامي، وأجنح بك وأنت لي وأنا أنت لأن النور هو الله لا نور سواه فجميع الأنوار الحادثة لا تأثير لها في شيء مطلقاً فليست مرادة بدعاء النبي ﷺ. ولما كان هذا مقام العارف بالله تعالى أن يصير كله نوراً ومن لازم ذلك أن يجد الوجود كله نوراً مثله هو عين نوره الذي هو قائم به قال عنه أنه (ينظر) في باطنه وظاهره (به) أي: بالحق تعالى لا بحسه ولا بعقله، ولا بنوره تعالى، الذي ينظر به المؤمن (إليه) أي: إلى الحق تعالى لا إلى سواه إذ لا سواه تعالى في بصيرة العارف مطلقاً. وقد أشار الشيخ أبو مدين رضي الله عنه إلى مقام المؤمن ومقام العارف بقوله من أبيات له:

عـرَفـنَـا بِـهَـا كُـلَّ الـوجـودِ، ولـم نـزلْ ... إلـى أنْ بـهـا كُـلَّ الـمـعـارفِ أنـكـرنـا

فقوله عرفنا بها كل الوجود: هذا مقام المؤمن الذي ينظر بنور الله. وقوله إلى أن بها كل المعارف أنكرنا: هذا مقام العارف الذي ينظر به تعالى إليه، ومن مقام العارف قول من قال: ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله وبعده وفيه، فمن رأى الله تعالى قبل كل شيء احتجب به تعالى عن رؤية كل شيء وهو مقام العارف، ومن رأى الله تعالى بعد كل شيء احتجب به تعالى أيضاً عن رؤية كل شيء وهو مقام العارف أيضاً لكن الأول أعلى لأنه نازل من عند الله تعالى والثاني صاعد إليه، والنازل قرآن والصاعد فرقان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] والقرآن واحد والكلم جمع كلمة والواحد هو الفرد الكثير فرد بالقرآن كثير بالفرقان، وأما من رأى الله في كل شيء فهو العارف الجامع للحق والخلق فليس بمحجوب عن الحق بالخلق ولا عن الخلق بالحق، فيعرف بماذا الحق حق، وبماذا الخلق خلق، وبماذا الخلق حق، وبماذا الحق خلق، وبماذا الحق ليس بخلق، وبماذا الخلق ليس بحق، وبماذا الحق والخلق موجودان كما يعلم وبماذا الحق والخلق موجودان لا كما يعلم، وبماذا الحق والخلق معدومان كما يعلم، وبماذا الحق والخلق معدومان لا كما يعلم إلى غير ذلك من العلوم التي اختص بها هذا العارف دون العارفين الذين قبله فهذا العارف الذي ينظر به تعالى إليه على ثلاثة أقسام والله

ولي الهداية والأنعام.

ثم خاطب رضي الله عنه المؤمن المذكور تنهيضاً إلى مقام العارف الذي هو أعلى منه فقال:

(ما دمت) أي: مدة دوامك (أنت) أيها المؤمن الواقف خلف حجابِ نفسك حيث أراك الله تعالى آية في الآفاق لا في نفسك ولهذا لم يتبين لك بعد أنه الحق فأنت في مقام الإيمان بالغيب خرجت من الإيمان البدعي إلى الإيمان السني وخرجتَ عن غي الوسواس الفكري إلى مرتبة علم اليقين (معك) أي: مع نفسك لم يرك الله تعالى آياته فيها حتى تعلم أنه الحق بخروجك عنها (أمرناك) أي: وجدت أمرنا متوجهاً عليك بالطاعات، واجتناب المنهيات لأنك مكلف بإفراز نفسك عن بقية المخلوقات الداخلة تحت تصرفنا، فكلفناك بسبب ما تكلفت أنت له، فوقعت في الكلفة أي: المشقة والتعب في الدنيا بقيامك في الأمر والنهي تنازع نفسك وتنازعك نفسك، وفي الآخرة بالحساب ونصب الميزان لك ووضع الصراط، وإعطائك كتاب أعمالك الذي كتبه عليك الحفظة بك وأنت لا تشعر كل ذلك بسبب قيامك بنفسك في زعمك (فإذا) لطف الله تعالى بك وأراك آياته في نفسك أيضاً كما أراكها في الآفاق فعلمت أنه الحق (فنيت) أي: انعدمت وانمحقت بالكلية (عنك) أي: عن نفسك، وحينئذ (توليناك) أي: صرنا متولين عليك متصرفين فيك ظاهراً وباطناً. قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦] وإذا تولاك الله تعالى كنت ولياً لله تعالى فعيلاً بمعنى مفعول فتجد أمره تعالى ليس متوجهاً عليك وإنما هو كاشف عن طاعتك ومعصيتك المقدرة عليك الواقعة منك لا محالة ولم تكن متكلفاً بإقرار نفسك عن بقية ما هو داخل تحت تصرف ربك فلا تكليف عليك أي: لا كلفة ولا مشقة عليك في الدنيا لقيامك بربك في امتثال الأوامر، واجتناب النواهي من غير منازعة نفسك في شيء من ذلك، وفي الآخرة أنت ممن يدخل الجنة بغير حساب ولا يوزن عملك وتمر على الصراط ولا تشعر به، ولا يعطى لك كتاب ولا يحزنك الفزع الأكبر، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢]. (وما تولاهم) أي: ما صار

بعد فنائهم.

ما دمتَ أنت فأنت مريد، فإذا أفناك عنك فأنتَ مراد.

ولياً لهم، أي: الصالحين من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦] (إلا بعد فنائهم) عن نفوسهم بحيث لم يبق لهم حركة ولا سكون ولا وجود إلا به تعالى، وهو تحققهم بحقيقة قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧] ومن عداهم نزلت عليهم نفوسهم المعادية لله تعالى كما جاء في الخبر: عاد نفسك فإنها انتصبت لمعاداتي، فإن جاهدوها كانوا ناجين وإن أطاعوها كانوا من الهالكين. ثم ذكر الشيخ رضي الله عنه تنهيضاً آخر فقال:

(ما دمت) أيها المؤمن بالغيب المحجوب بنفسك عنك (أنت) أي: موجود في نفسك مع الله تعالى وقد منّ الله تعالى عليك ووفقك لإرادته (فأنت مريد) له تعالى حينئذ والمريد تعبه بحسب مراده فمريد الله تعالى العظيم تعبه أعظم واعلم أن كل شيء من الإنسان وغيره مريد لله تعالى مقبل عليه في عين إرادته لما سواه في زعمه إذ لا سواه تعالى إذ كل شيء هالك إلا وجهه ولله در القائل حيث يقول:

كنار موسى رآها عين حاجته وهي الإلهُ ولكنْ ليس يدريه

فمن زالت نفسهُ شهد وجهُ الله تعالى في كل شيء وشهد كل شيءٍ هالكاً فانياً وتحقق بأنه مريد لله تعالى على كل حال في يقظته وغفلته، ومن بقيت نفسهُ معه شهد كل شيء، ولا يشهد وجه الله تعالى أبداً، فلا يقدر أن يتحقق بأنه مريد لله تعالى أبداً بل لو أنصف وجد إرادته لغير الله تعالى في عين إرادته لله تعالى عنده، والله بصير بالعباد. وقد خطر لي من النظم في هذا الوقت قولي:

وما الكمالُ سوىٰ علمٌ يريكَ بهِ ما أنتَ فيهِ فأنتَ الكاملُ الناقصُ

فلا ترم غير ما بالحسِ تشهدهُ من حالكَ الآن يا ذا الساكنُ الراقصُ

عسى يحلُ عقال العقل عاقدهُ عسى شعور شهود يرسل العاقصُ

(فإذا أفناك) الحق تعالى وفيه إشارة إلى أن الفناء والبقاء ليسا داخلين تحت مقتضى إرادتك واختيارك بل هما حالتان يقيم الله تعالى في أحدهما من أراد من عباده، قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢] (عنك)

أي: عن نفسك ووجودك بأن أراك آياته في الآفاق والآيات عين الآفاق، أخرجك عن الآفاق إلى آياته ثم أراك آياته في نفسك والآيات عين نفسك فأخرجك عن نفسك إلى آياته فعلمت أنه الحق. قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] وهذا من آيات القرآن العظيم الذي نزل به جبريل الأمين على قلب نبينا محمد ﷺ ولم يزل ينزل إلى يوم القيامة يملك الإلهام الذي هو من أعوان جبريل عليه السلام على قلوب العلماء الذين هم ورثة محمد ﷺ فإذا نزل عليهم لم يكن غيرهم، وإلى هذا المعنى أشار قدوة المحققين الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله تعالى عنه بقوله:

أنا القرآن والسبع المثاني ... وروح الروحُ لا روح الأواني

فؤادي عند موجده مقيم ... يناجيه وعندكُمْ لساني

إلى آخر الأبيات... (فأنت مراد) للحق تعالى حينئذٍ فأنه ما أفناك إلا لأنه أرادك، كما أنه من أبقاه مع نفسه ما أبقاه إلا لأنه ما أراده، فإن الله تعالى ما أراد أحداً إلا وأخذه من نفسه إلى عنده، وإذا أخذه عنده أفناه عن نفسه فلا يبقى عند نفسه بل عند ربه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] فيفهم منه إن الذين عند نفوسهم مستكبرون عن عبادته واستكبارهم هو دعوى نفوسهم معه تعالى، وإذا أراك الحق تعالى فقد شملتك العناية الأزلية واختطفتك الجذبة الإلهية، قال عليه السلام: «جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين»، وفي خطاب الله تعالى لموسى عليه السلام ما يشير إلى ذلك بقوله تعالى: (واصطنعتك لنفسي ولتصنع على عيني). ولله در القائل حيث قال:

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

واصطد بها العنقاء فهي حبالة ... واقتد بها الجوزاء فهي عنان

ولنا من النظم في هذا المعنى:

رُبَّ شخصٍ تقودُه الأقدارُ ... للمعالي وما بذاكَ اختيارُ

غافلٌ والسعادةُ احتضنتهُ ... وهو منها مستوحشٌ نفارُ

اليقين الأدوم في غيبتك عنك ووجودك به. فكم بين ما يكون بأمرهِ

يتعاطى القبيحَ عمداً فيلقا • جميلاً وفلسه دينارُ
كلما قارف الذنوبَ أتته توبةٌ طهرتُه واستغفارُ
وعليه إن زلَّ عين من الله تقيهِ ويسترُ الستّارُ
فهو باللهِ دائماً يترقى لا بهِ حيثُ تشرقُ الأنوارُ
وفتىً كابدَ العبادةَ حتى منهُ قد ملَّ ليلهُ والنهارُ
يتسامى بالفكرِ والذكرِ قصداً وهو ناءٍ وعنه شطَّ المزارُ
يفعلُ الخيرَ ثم يلقاه شراً وإذا رامَ جنةً فهي نارُ
حكَمٌ حارتْ البريةُ فيها وحقيقٌ بأنها تحتارُ
وعطايا من المهيمنِ دلّت أنّهُ اللهُ فاعلٌ مختارُ

ثم ذكر الشيخ رضي الله تعالى عنه تنهيضاً آخر فقال:

(اليقين) بوجود الله تعالى **(الأدوم في)** كل حال من الأحوال بعناية الله تعالى إنما هو **(غيبتك)** أيها المؤمن بالغيب المحجوب بنفسه **(عنك)** أي: عن وجودك بنفسك **(ووجودك)** في نفسك **(به)** أي: بالحق سبحانه وتعالى فتبقى غائباً عن وجودك الذي بك حاضر عند وجودك الذي به عز وجل، وفي الحقيقة لا وجود لك بك وإنما أنت متوهم أن لك وجوداً بك فإذا زال عنك توهمك أن وجودك بك ظهر لك أن وجودك به تعالى من قبل، ولكن أنت غائب عنه ولهذا أنت مؤمن بالغيب جاحد للشهادة فإذا رجع وجودك به تعالى صرت مؤمناً بالغيب والشهادة، وكما أن ربك عالم الغيب والشهادة فأنت حينئذ عالم الغيب والشهادة، فيجب عليك أن تتكلم بالشهادة وهي شهادة الحق تعالى أي شهوده تعالى في كل شيء، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣] ولا تكن على الغيب بضنين أي: بخيل، فإن الله تعالى يقول: يقول عن نفسه **(وما هو عن الغيب بضنين)** فأنت حينئذٍ تحت حكم ربك عليك والله صانع بك ما يشاء.

(فكم بين ما) أي: المؤمن الذي والقياس من لاستعمالها فيمن يعقل وما فيمن

وبينَ ما يكونُ به، إنْ كُنتَ قائماً بأمرهِ خضعتْ لك الأسباب، وإنْ كُنتَ

لا يعقل. قال المتنبي في أبيات له:

وإنـمـا نـحـنُ فـي جـيـل سـواسـيـة — شر على الحر من سقم على بدنِ

فـي كُـلِّ أرضٍ وطـئـنـا مـنـهـم أمـمـا — تخطى إذا جئت في استفهامها بمن

يعني: إذا استفهمت عنهم بقولك من هم فقد أخطأت، فإن من لمن يعقل وهم لا يعقلون وإنما يقال فيهم ما هم. ولما أنشد بعض الشعراء قوله:

يـا حـبـذا جـبـل الـريـان مـن جـبـل — وحـبـذا سـاكـن الـريـان مـن كـانـا

قال له بعض من حضره: وإن كان ساكن الريان قروداً؟ فقال له: لو أردت ذلك لقلت ما كان فالجواب أما على عدم الفرق بينهما، كما زعمه بعضهم واستدل عليه بقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ [الكافرون: ٣] وقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧﴾ [الواقعة: ٢٧] ونحو ذلك، ويمكن أن يقال: لما كانت النساء أنقص عقولاً من الرجال أتى بما في موضع من فيهن للإشارة إلى ذلك مجازاً ولما كان الله تعالى لا يوصف بالعقل لكونه ليس من صفاته تعالى قيل فيه ما أعبد ولم يقل من أعبد والاستفهام عن حالة أصحاب اليمين تفخيماً لها والتقدير ما حالة أصحاب اليمين وكذلك جميع ما ورد من ذلك مؤول على حسب ما يليق به وإما أن يقال في كلام الشيخ قدس الله سره هنا أن المؤمن والعارف لما كان حالهما في الإيمان والمعرفة ليس مبنياً على مقتضى العقل ولا مستفاداً منه بل هو شرع إلهي محض أجراهما مجرى من لا يعقل حيث لم يستعملا آلة العقل فيما اتصفا به من الإيمان والمعرفة فذكر فيهما ما موضع من والتقدير كم بين المؤمن بالغيب الذي (يكون) أي: يوجد ويتكون (بأمره) أي: بأمر الله سبحانه وتعالى الذي قام به كل شيء فإن ذلك الكائن بأمره تعالى موجود عند نفسه غائب عن شهود أمر الله تعالى الممسك له غير أنه مؤمن بذلك إيماناً بالغيب (وبين ما) أي: العارف الذي (يكون) أي: يوجد ويتكون (به) أي: بالحق سبحانه وتعالى الذي هو غالب على أمره. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١] وعدم علمهم لقيامهم بأمره لا بد فهم مغلوبون لا

قائماً به تضعضعتْ لكَ الأكوان.

غالبون والله غالب عليهم والقائم به تعالى غالب لا مغلوب. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧٣] واعلم أن أمر الله تعالى هو قيوميته لجميع خلقه ملكاً وملكوتاً، والقيومية من جملة صفاته تعالى والقيوم اسمه تعالى ومعلوم أن أسماء الله تعالى وصفاته لا عين ذاته ولا غير ذاته فالصفاتيون هم الأسمائيون القائمون بصفات الله تعالى وأسمائه وهم أولو الأمر الواجب إطاعتهم بعد إطاعة الله ورسوله وأعلى منهم الذاتيون وهم القائمون بذات الله تعالى المتقدمون في وجوب الإطاعة على أولي الأمر فإن قلت كيف قاموا بذات الله تعالى، وذاته تعالى غنية عن العالمين قلتُ: لما استهلكهم الفناء عن وجودهم غطسوا في بحار الصفات الإلهية فقذفتهم أمواج الأسماء الإلهية إلى ساحل الذات العلية فاختاروا وجود ربهم على وجودهم وآثروا ذاته على ذواتهم فناب وجوده تعالى عن وجودهم وقامت ذاته مقام ذواتهم فاستغنوا به عنهم فهم هو، وهو عينهم كما قلت في أبيات لي في ديواني:

وكلهم هو فاسمع وهو عينهم ... إن الزجاج له بالشمس تلوين

وأما الصفاتيون والأسمائيون الذين هم أولو الأمر فهم على قسمين منهم العارف ومنهم المحجوب، فالعارف يقال فيه ذاتي لغلبة محق الذات العلية له في بعض الأوقات فيصير قيامه بها، ويقال فيه صفاتي أسمائي لغلبة أحكام الصفات والأسماء عليه في أكثر الأوقات وهذا الصفاتي الأسمائي هو مراد الشيخ رضي الله عنه هنا في قوله يكون به والمحجوب مراده بقوله يكون بأمره. ثم قال في بيان ما ذكر **(إن كنت)** أيها المريد **(قائماً بأمره)** سبحانه وتعالى إيماناً غيبياً وأنت محجوب بنفسك عن شهود حقيقة الأمر الذي أنت قائم به، ولا تشعر **(خضعت)** أي: ذلت وانقادت وأطاعت **(لك)** حينئذٍ جميع **(الأسباب)** الشرعية والعقلية والعادية بحيث كل أمر تقصده من عبادة أو علم أو رزق ونحو ذلك تيسر لك سببه من غير صعوبة عليك، فأنت قائم بأمر الله تعالى لنفسك لا لله تعالى، ففرضك نفسك وهي حجابك بينك وبين ربك فناسب أن تخضع لك الأسباب التي هي حجب بينك وبين المسببات وأيضاً قمت بالأمر الإلهي الذي هو واسطة بينك وبين ربك فخضعت لك الأسباب التي هي وسائط بينك وبين المسببات فكان ذلك جزاء وفاقاً **(وإن كنت قائماً به)** أي: بالحق عز

وجل عن كشف وشهود (تضعضعت) أي: تحركت واضطربت فضلاً عن خضوعها وانقيادها (لك) أي: لأمرك الذي هو أمر الله تعالى حيث أنك قائم به تعالى (الأكوان) أي: الموجودات جميعها واعلم أن الكائنات بأسرها ما وجد منها وما لم يوجد بعد مستندة إلى الحق تعالى في وجودها فلزم من ذلك أن تكون قائمة بأمره تعالى وهي مترتبة في الوجود فالسابق منها يسمى سبباً لما هو بعده ولما هو مترتب عليه فمن قام بأمر الحق تعالى عن غفلة وحجاب قام بنفسه عند نفسه فسمى السابق سبباً، والمسبوق مسبباً، فتخضع له الأسباب باعتبار أمر الله تعالى الذي هو قائم به وخضوعها لأمره تعالى لا لنفس ذلك العبد، ولكن لما كانت نفس ذلك العبد قائمة بأمره تعالى، التبس عليه الخضوع فظنه لنفسه فخوطب من جنس ما ظن فقيل خضعت له الأسباب كما أن بعض الناس لما اشتغلوا بالتكاثر والتهوا به عن شهود الحق تعالى وظنوا أن التكاثر مؤثر مستقل بالوجود مع الله تعالى خاطبهم الله تعالى من جنس ما هم فيه من الظن فقال: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ①﴾ [التكاثر: ١] والقياس أن يقال: ألهيناكم بالتكاثر، والله تعالى يقول: (أنا عند ظن عبدي بي) يعني: إن ظن بي إني منفرد بالتأثير وجدني كذلك، وإن ظن أن معي مؤثراً غيري أريته الأمر كذلك إضلالاً له ثم خاطبته على حسب ما رأيته ثم قال: فليظن بي خيراً، أي: فليظن الانفراد لنا بالإيجاد، ونحو ذلك من الخير فإن الحق تعالى ما تجلى لشيء إلا بما استعد له ذلك الشيء كما سئل الجنيد رضي الله عنه عن المعرفة والعارف فقال لون الماء لون إنائه يشير إلى ما ذكرناه ومن قام بأمر الله تعالى عن كشف وشهود قام بالحق تعالى فلم يسم سبباً ولا مسبباً فتضعضعت له جميع الأكوان القائمة بأمر الله تعالى وتضعضعها إنما هو للحق تعالى الذي قام به هذا العبد لا لهذا العبد ولما عرف ذلك هذا العبد جاءهُ الخطاب من الله تعالى هو الذي سخر ﴿لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] والتسخير إنما هو لله تعالى لا لغيره ونسبته للعبد كما أن السجود من الملائكة عليهم السلام لله تعالى ونسبته لآدم عليه السلام لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [البقرة: ٣٤] وهذا هو التسخير بعينه والملائكة هي ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه وإلى حقيقة آدم عليه السلام ترجع حقيقة الإنسان الكامل والممتنع عن السجود له إبليس والشياطين عليهم اللعنة وبسبب امتناعهم عن السجود أنهم ليسوا منه تعالى كالملائكة لانقطاعهم عنه تعالى

بسبب غلبة عالم الخلق فيهم على عالم الأمر، والملائكة الغالب فيهم عالم الأمر على عالم الخلق، ولهذا لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وقال تعالى عنهم: ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

ثم شرع الشيخ رضي الله عنه في بيان المقامات السلوكية على ترتيبها بحسب الوجدان في طريق الله تعالى.

فقال: (**أول المقامات**) جمع مقام، وتقدم الكلام عليه، يعني أول ما يجد السالك إلى الله تعالى بعد مفارقة طور العلم الظاهر يجد في قلبه (**الصبر**)، وهو تحمل النفس جميع الشدائد والمصائب دون الشكوى إلى أحد وتجرع مرارات الأمور مع مكابدة الطاعات ظاهراً وباطناً، وإخلاء الصدر من الضجر، ومن الشعور بكون نفسه متحملة ومتجرعة له، وهذا المقام لا يتم غالباً إلا لأهل الجذبة الإلهية، بحيث لا يشعر العبد معها بنفسه أنها في ضيق أو رخاء وذلك لا يحصل إلا بتوفيق الله تعالى من غير تعمل ولا تكلف (**على**) جميع (**مراده**) أي: مراد الحق تعالى لأنه الفاعل المختار والحاكم الذي لا معقب لحكمه وهو الواحد القهار، ولا يكون ولا يوجد إلا ما أراده واختاره من الخير والشر والنفع والضر إنْ صبر العبد، وإن لم يصبر فالصبر لا يزيد من المصائب والشدائد والضجر لا ينقص شيئاً منها، قال تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] يعني: صبركم خير من عدمه، وأما مراد الله تعالى فهو كائن لا محالة صبرتم أو لم تصبروا، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] يعني: أن الصبر أمر يقدره الله تعالى عليك فينزله إليك عند المصائب إن كان لك صبر في علمه وتقديره وإن كان لك ضجر أنزله إليك من غير صبر فأنت موضع لجريان الحكم الأزلي، والتقدير فأمره لك بالصبر في قوله تعالى لك اصبر هو تكوين الصبر فيك تكويناً خاصاً كما أخبر تعالى عن تكوينه العام بقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠] فقوله: كن، أمر بالتكوين فيكون ذلك الشيء المأمور بالتكوين لا محالة من غير مخالفة للأمر، لأنه لما كان بالله تعالى فلا يمكنه المخالفة، وهو قوله ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] في التكوين الخاص، وكذلك القول فيمن لا يصبر وضجر فالله تعالى يقول له اضجر وما ضجرك إلا بالله،

ولكن لم يرد الإخبار عن ذلك لأنه شر والشر يستر، ولا ينسب تكوينه إلى الله تعالى إلا بطريق العموم كما قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨] إلى غير ذلك من الآيات الصريحة بأنه سبحانه وتعالى مكوِّن كل شيء من خير وشر ونفع أو ضر، فجميع ما هو واقع في الدنيا مما هو مقدر في الأزل من خير أو شر، فهو بإرادة الله تعالى سواء كان مع ذلك برضاه كالطاعات أو بغضبه وبسخطه كالمخالفات، وكله واقع صادر من المخلوقات بتكوين الله تعالى له، وتكوينه تعالى لشيء إنما هو بطريق الأمر لذلك الشيء، ثم إن ذلك الشيء يمتثل ما أمره الله تعالى به، ولا يمكنه مخالفته أبداً على كل حال ثم إن الله تعالى أخفى قضاه وقدره عن خلقه لتقوم بذلك الحجة على الخلق، ولا فرق في الحقيقة بين أمر التكوين، وأمر التكليف غير أن أمر التكوين عام وأمر التكليف خاص وأمر التكوين مجمل وأمر التكليف مفصل. أما أمر التكوين فهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠] والشيء مطلق من غير تخصيص فهو شامل لكل شيء فلا عصيان لشيء مطلقاً من هذا الوجه، وأما أمر التكليف فهو قوله تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦] وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ [الإسراء: ٣٢] يعني: كفوا عنه. والنهي أمر في المعنى لأنه لطلب الكف عن الشيء لا بمعنى العدم وهذا الأمر الذي هو أمر التكليف إنما خوطب به في الحقيقة من قدر الله تعالى عليه امتثاله في الأزل فقوله تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ خطاب لمن قدر الله عليهم الإيمان، وهو تفصيل لقوله تعالى للإيمان المقدر عليهم كن فيكون وكذلك قوله تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ خطاب لمن قدرت عليهم الصلاة ونحو ذلك. وأما من لم يقدر عليهم الإيمان والصلاة وقدر عليهم الكفر والكف عن الصلاة أو نسيانها فتفصيل تكوين ذلك فيهم وتقديره كن كفراً فيهم فيكون، وكن كفاً عن الصلاة فيكون، وكن نسياناً لها فيكون ولكن لا يقال هكذا في تفصيل أمر الله تعالى وإن كان هذا صواباً في حقيقة الأمر تأدباً مع الله تعالى لأنه تعالى ما أنزل هكذا في تفصيل أمره لأن الشريعة تفصيل أمر الله للسعداء

فقط، لأن كل شريعة تفصيل لأمر مجمل أمر به نبيها المرسل فيها فيبنها إلى قومه، وكل نبي قومه السعداء منهم فشريعته تفصيل أمرهم الذي هو أمره. وأما الأشقياء فمعلوم تفصيل أمرهم بالمخالفة لأمر السعداء وبضدها تتبين الأشياء، فإنذار الأنبياء عليهم السلام لأممهم وتبشيرهم إنما هو للسعداء فقط لأن أمر الله تعالى للسعداء والأشقياء إنذارهم وتبشيرهم وقع من الأنبياء عليهم السلام بطريق المفهوم لأجل إلزام الحجة عليهم من الله تعالى. قال تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾ [يس: ٧] أي: على أكثر الخلق وهم الكافرون، فيستحيل إيمانهم حينئذٍ لإخباره تعالى عنهم بعدمه وإن كان إيمانهم ممكناً في نفسه، ثم قال تعالى في سبب عدم إيمانهم: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ [يس: ٨-٩] وهذا كناية عن تكوين ضد الإيمان فيهم وضد التوحيد. ثم أخبر تعالى عنهم أن إنذاره وعدمه سواء في حقهم لأن أمرهم أمر آخر غير أمر السعداء فقال: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، ثم صرح سبحانه وتعالى بأن إنذاره إنما هو للسعداء فقط حيث قال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾ [يس: ١١] وهذه أوصاف السعداء فقط، ثم ضم تعالى التبشير إلى الإنذار وأشار إلى أنه مخصوص بالسعداء كالإنذار بقوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١] مع أن صدر الآية قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ ۝٦﴾ [يس: ٦] ففيه وقوع الإنذار في حق الأشقياء والجواب عنه أنه إنذار بطريق المفهوم لهم كما ذكرنا لا حقيقة الإنذار حيث لم يكن لهم خشية منه ولا ترك لما هم فيه فهم ليسوا أهله بل هم أهل التكذيب والجحود، ويؤيد هذا ما نقله السلمي رحمه الله تعالى في حقائق القرآن في قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣﴾ [طه: ٤٣]. قال ابن عطاء الله رحمه الله تعالى: الإشارة إلى فرعون وكان مبعوثاً في الحقيقة إلى السحرة فإن الله تعالى لا يرسل أنبيائه إلى أعدائه ولم يكن لأعدائه عنده من الخطر ما يرسل إليهم أنبيائه ولكن يبعث الأنبياء عليهم السلام إليهم ليخرج الأولياء المؤمنين من بين الأعداء الكفرة اهـ. فإن قلت: يلزم مما ذكرت أن أمر الله تعالى ونهيه ليس شاملاً للعصاة المخالفين فيلزم أن لا يكونوا مكلفين بذلك وأن لا يكونوا عصاة ولا مخالفين

وهو باطل، قلت: لا يلزم عدم تكليفهم بذلك الأمر والنهي وإن كان كذلك وارداً في حق غيرهم لأنهم قائلون بموافقته بحسب العادة الظاهرة لهم ولغيرهم، وإن توجه عليهم أمر بضد ذلك أو نهي عن ذلك لأن أمرهم ونهيهم الخاصين بهم لم ترد الشريعة بهما إلا إجمالاً لا تفصيلاً وتسميتهم عصاة ومخالفين إنما هو بالنسبة إلى ما وردت به الشريعة فقط من أمر السعداء ونهيهم، قال تعالى في أمرهم الخاص بهم: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإنسان: ٢٨] فيتحصل لنا من هذا كله أن أمر الله تعالى واحد وهو أمر التكوين فقط، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠] وهو متوجه من الأزل على إيجاد ما قدّره الله تعالى على عباده السعداء والأشقياء. فالحقيقة هي معرفة هذا الأمر العام ومعرفة إطاعة جميع العباد السعداء والأشقياء له من غير مخالفة وأما الشريعة فهي بيان هذا الأمر الواحد وتفصيله في المأمورين بحسب استعداد كل مأمور على حدة، إما تفصيلاً ببقائه على حاله غير أنه نقل من العموم إلى الخصوص وهو جميع الشريعة حيث وردت في حق السعداء فقط وإما تفصيلاً بمعنى البيان بطريق المخالفة لذلك الخصوص في أمر السعداء مع ستر خلاف ذلك الخصوص من اسمه تعالى الستّار وهو حال العصيان والمخالفة في حق الأشقياء العاصين المخالفين لأمر السعداء الذي هو أمر نبيهم عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور: ٦٣] يعني: عن خصوص أمره بسبب خصوص أمر آخر متوجه عليهم. وفي هذا القدر كفاية في تحقيق هذا المبحث وبيانه أوضح من ذلك موكول إلى الكشف الصحيح عند أهله والله أعلم. **(وأوسطها)** أي: أوسط المقامات في سلوك الطريق إلى الله تعالى بعد وجدان مقام الصبر على مراد الله تعالى أن يجد السالك في قلبه **(الرضا)** أي: القبول وطمأنينة السر **(بمراده)** سبحانه وتعالى بحيث لا يجد عنده تكلفاً في قبول ذلك الذي يريده الله تعالى سواء كان خيراً أو شراً أو نفعاً أو ضراً ولا يرى في قلبه حرجاً منه. قال الله تعالى في أهل هذا المقام: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٧٤]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨] ورضاؤهم في الحقيقة هو رضاء الله تعالى عنهم وجميع ما يريده الله تعالى خير والرضا لا يكون إلا بالخير وأما الشر فهو مفترق عن الخير باعتبار خلق الله تعالى

تكون بمراده.

النفوس التي هي للأرواح كالكراسي للعروش وكل عرش هو المستوى الرحماني وكل كرسي هو موضع تدلي القدمين قدم الخير وقدم الشر وعوالم الله تعالى بعدد الأنفاس وفي كل نفس عوالم لله تعالى لا يعلمها إلا هو ويعلمها من شاء من عباده بطريق المرور به عليها فيجد عوالم أنفاس أهل اليقظة كلها ملائكة مسبحة مقدسة لله تعالى، وعوالم أنفاس أهل الغفلة كلها شياطين مطلقة مختلفة الأشكال والصور وفيها ملائكة مسجونة بسلاسل من حديد يسبحون الله تعالى فيخلق الله تعالى من تسبيحهم ملائكة على غير صورهم مطلقة تسبح الله تعالى أيضاً بلغات الأولين، قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] (وآخرها) أي: آخر المقامات بعد وجدان مقام الصبر ووجدان مقام الرضا (أن تكون) نفسك بحسب الوجدان قائمة (بمراده) سبحانه وتعالى في جميع الأحوال فيزول عنك الصبر على مراد الله تعالى والرضا بمراده تعالى فلا تجد لما يظهر لك منك، أو من غيرك مشقة فتصبر على تلك المشقة ولا لذة ولا فرحاً فترضى بتلك اللذة وذلك الفرح بل تجد جميع ذلك صادراً منه تعالى على مقتضى إرادته القديمة فلا يبقى لك وصف من نفسك أبداً وتبقى أوصافك ظهور أوصافه تعالى لك على حسب استعدادك، وهذا هو الإحصاء الوارد في قول النبي ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة» يعني: من ظهرت عليه واتّصف بها دخل جنة الذات الأزلية وتنعّم بالذات والصفات بين البرية. ولنا من النظم في هذا الباب قولنا:

يخدمَ العز والتفاخر بابه ... وتود العلا تمس ركابه

وله من رضا الإله وشاح ... وعليه شهامة ومهابه

والسعيد السعيد من شملته ... نظرة منه أو حباه خطابه

لك طوبى إن كنت يوماً تراه ... راضياً عنك قد أماط حجابه

وإذا كان ساخطاً قل سريعاً ... إنما الله ساخط فتنابه

ثم ذكر الشيخ رضي الله عنه طريقة السلوك إلى الله تعالى بالعلم والعمل الذي هو المجاهدة الشرعية الموصلة إليه تعالى كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] بقوله:

(العلم) يعني علم الشريعة والدين المتعلق بالاعتقاد والمتعلق بالعمل على الوجه الأتم **(طريق العمل)** أي موصل إلى العمل وملجىء إليه في الغالب مع بقاء الإسلام إذ كل عالم عامل بما علم ولو اعتقاداً كالعالم إذا زنا مثلاً، فإنه تعلم أن الزنا حرام، ويعتقد حرمته فاجتنابه له عمل بعلمه، واعتقاده حرمته عمل آخر بعلمه. فإذا فاته اجتنابه لم يفته اعتقاده، والاعتقاد أفضل من الاجتناب لأنه من الإيمان والاجتناب الوارد من أعمال الجوارح، وتارك الإيمان كافر وتارك أعمال الجوارح فاسق، فلم يخل علم من عمل مطلقاً. وأما الحديث الوارد بالوعيد لمن لم يعمل بعلمه وإنه معذب من قبل عابد الوثن، فهو محمول على من لم يعمل بعلمه لا فعلاً ولا اعتقاداً مطلقاً ولا شك في أن كفره حينئذ أشد من كفر عابد الوثن لأنه يعبد الوثن على جهل منه وأما الكافر على علم فلا جهل منه **(والعمل)** بالعلم المذكور الذي هو علم الشريعة والدين اعتقاداً وامتثالاً بالجوارح واجتناباً وإخلاصاً **(طريق العلم)** أي: علم الحقيقة، يعني موصلاً إليه وملجأ إلى حصوله من غير تأخير. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩] أي: العاملون بعلمنا الذي أرسلنا به رسلنا لنعلمهم من لدنا علماً يوصلهم إلينا وهو العلم اللدني الذي علمه الله تعالى للخضر عليه السلام كما قاله سبحانه وتعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ [الكهف: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢] فطريق التقوى وهي العمل بعلم الشريعة والدين كما ذكرنا وهذا العلم اللدني هو المعتبر في مسمى العلم وهو أفضل من العلم الكسبي لأن العلم الكسبي هو علم الشريعة والدين وهو العلم بأحكام الله تعالى اعتقاداً وعملاً، وهذا العلم اللدني هو العلم بالله تعالى ذاتاً وصفاتاً وأسماء وأفعالاً وأحكاماً على وجه الكشف والشهود، ولا شك أن العلم بالله أشرف من العلم بأحكامه لتعلق الأحكام بغيره تعالى دون العلم به ولأن الكل أشرف من البعض فإن قلت العلم بأحكام الله من جملة العلم بالاعتقادات الشرعية، وهي العلم بالله تعالى ذاتاً وصفاتاً وأسماء وأفعالاً فقد دخل العلم اللدني في العلم الكسبي قلت نعم العلم بالاعتقادات الشرعية داخل في العلم بالأحكام وهو العلم بالله تعالى ذاتاً وصفاتاً وأسماء وأفعالاً لكن لا يعتبر ذلك في الشرع، إلا إذا كان على وجه العجز

والتسليم كإيمان الأكمه بالألوان، فالعلم على هذا الوجه ليس بعلم إلا حكماً شرعياً، بل هو جهل محض بالله تعالى وتقليد الأنبياء عليهم السلام فيما جاؤوا به عن الله تعالى، وأما إذا كان على وجه الفهم والدهول بالعقول في معاني ذلك الوارد فهو بدعة وضلال وليس بعلم شرعي أصلاً، فأين هذا وأين العلم اللدني الكاشف لصاحبه عن تجليات الحق تعالى في كل شيء من غير تشبيه ولا تعطيل إلى غير ذلك من المعارف والحقائق.

فإن صاحب العلم اللدني هو الوارث للأنبياء عليهم السلام لأن علوم الأنبياء وهبية لا كسبية، والعلم الشرعي كسبي لا وهبي، والعلم الكسبي علم النبي يكسبه العبد بالتعلم من عبد آخر مثله وتتداوله عقول الوسائط وتتناقله أفهام الرواة ويأخذه العالم به ميتاً عن ميت إلى رسول الله ﷺ.

والعلم اللدني علم الله تعالى يهبه الله تعالى إلى العبد بلا واسطة وليس يناله كل عبد، بل لا يحصل إلا للعبد الحي بالحياة الإلهية التارك لنفسه المقبل على ربه القائم في باطنه وظاهره بربه لا بنفسه، فهو العلم من الحي الذي لا يموت إلى الحي الذي لا يموت، وصاحب العلم الكسبي عند أهل التحقيق حامل لعلم غيره وهو النبي ﷺ لا عالم وصاحب العلم اللدني عالم لا حامل علم لأنه لا علم له من نفسه، بل علمه من ربه. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] أي: العارفون به تعالى عن كشف وشهود وأما من لم يعرفه بل عجز عن معرفته فكيف يخشاه.

وهل تتصور خشيته من شيء لم يعرفه وللشيخ شرف الدين بن الفارض قدس الله سره أبيات في العلم الكسبي والوهبي من تائيته وهي قوله:

ولا تك ممن طيشته دروسه ... بحيث استقلت عقله فاستفزت

فثم وراء النقل علم يدق عن ... مدارك غايات العقول السليمة

تلقيته عني ومني أخذته ... ونفسي كانت من عطائي ممدتي

فعلم الدرس هو العلم الكسبي، وعلم النفس هو العلم الوهبي كما قال عليه الصلاة والسلام: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩] أي: بسبب علم الدرس

المعرفةِ، والمعرفةِ طريقُ الكشفِ، والكشفُ طريقُ الفناءِ.

حصلوا علوم النفس وكونوا ربانيين لا نفسانيين وهو قول الشيخ رضي الله عنه: العلم طريق العمل والعمل طريق العلم، فالعلم الأول علم الدرس، والثاني علم النفس، فعلم الدرس وسيلة إلى علم النفس فعلم النفس مقصود فهو أفضل من خادمه الذي هو علم الدرس والله بكل شيء عليم. (**والعلم**) اللدني المذكور (**طريق المعرفة**) أي: الموصل إليها إذ لا يعرف الله إلا الله فإذا أرادك الله تعالى علمك علماً من عنده يخصك به فتعلمه بعلمه، وأما العلم الذي أمرك بتعلمه، فهو علم يوصلك إلى معرفة عجزك عن معرفته ويوقفك على الأدب معه، وعلى تقواه، فإذا تأدبت معه واتقيته علمك عِلْمُك بنفسه فعلمته به لا بك كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] (**والمعرفة**) بالله تعالى المستفادة من العلم اللدني الوهبي (**طريق الكشف**) عن الغيب ورفع حجاب الشك والريب، وقد سبق تعريف المكاشفة، وهي والكشف بمعنى واحد (**والكشف**) المذكور (**طريق الفناء**) في الحق تعالى، بحيث لم يبق من العبد ولا من غيره في بصيرته شيء ويبقى الحق في نفسه قائماً بالحق، وهذا هو الوصول إلى الله. قال النبي ﷺ في هذا المقام: «كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان»، ومعلوم إن كان في حق الله تعالى معناها الدوام والاستمرار لا المضي والانقطاع كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦] أي: ولم يزل مستمراً كذلك. ثم اعلم أن هذه المقامات الستة التي ذكرها الشيخ رضي الله عنه في طريقة السلوك إلى الله تعالى بالعلم والعمل قد يقطعها صاحب الجذب الإلهي بالعناية الإلهية من غير كسب، ولا اجتهاد ولكنه نادر في الخلق والنادر لا حكم له وإما بالسلوك والاجتهاد والمجاهدة الشرعية فهو أمر مطرد، ولا بد له من مساعدة جذب إلهي بعد قطع مسافة العلم الكسبي والعمل، فإن الجذب الإلهي يأخذ باليد ويقتحم بالعبد ميادين المقامات وإما بلا جذب إلهي فلا يمكن الوصول إلى الله أبداً وإن أمكنه السير في العلم الكسبي والعمل به، فهو عابد وليس بسالك، فإذا جذب فهو سالك وليس بعابد، وهذه المقامات الستة المذكورة هي مقام العلم الكسبي الشرعي ثم العمل به على الإخلاص من غير بدعة ثم العلم اللدني الوهبي، الذي ينتجه العمل مع الإخلاص الخالي من البدعة ثم المعرفة بالله تعالى ثم الكشف عن الحق تعالى في أنواع تجلياته ثم الفناء عن كل معقول ومحسوس بحيث تضمحل رسوم النفوس. ثم شرع الشيخ رضي الله عنه

ما صلحت لنا وفيك بقيةٌ لسوانا، فإذا حولت السوي أفنيناك عنك فصلحت لنا فأودعناك سرنا ـ إذا لم يبقَ عليكَ حركة لنفسك كمل يقينك،

يحث المريد على مقام الفناء وينشطه إليه فقال متكلماً عن حضرة ذي الجلال لأنه في مقام الفناء عن نفسه، فهو ناطقٌ بحسب حلسه.

(ما صلحت) محبوباً (لنا) أيها الواصل إلى مقام الكشف بفنائه بسائر الأغيار دون نفسه، بل أنت محبٌ لنا حينئذ قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] فمحبته لهم هي الأصل ومحبتهم له هي الفرع، فما داموا مشتغلين عنه بالأغيار فهم في قبضة نفوسهم فإذا ارتفع عنهم حجاب الأغيار زال عنهم اشتغالهم بسواه، فاطلعوا على محبته لهم فوجدوا في نفوسهم محبة له فأحبوه فكشف لهم عن كل شيء، فإذا اضمحلت نفوسهم وفنيت في محبته كشف لهم عنه فعلموا أنه يحبهم لا هم يحبونه وتحققوا بأن شمس يحبهم أشرقت على أقمار يحبونه وأن ضياء أقمار يحبونه هو بعينه نور شمس يحبهم فوصلوا إليه ووقعوا بين يديه، ولولا اضمحلال نفوسهم وفناؤها في محبته ما كشف لهم عن وجهه النقاب، ولا فتح لهم إلى حضرته الباب ولهذا قال الشيخ قدس الله سره العزيز (وفيك) الواو للحال أي: مستقرة فيك (بقية) منك (لسوانا) أي: لغيرنا والبقية هي قيامك بنفسك وإن فنيت عن سائر الأغيار (فإذا حولت) عنك (السوي) كله بأن سعيت واجتهدت في اضمحلال نفسك أيضاً عنك (أفنيناك) أي: ساعدناك على سعيك واجتهادك ففنيت (عنك) أيضاً، أي: عن نفسك (فصلحت لنا) حينئذٍ ولولا تحويلك السوي عنك ما صلحت، وهذا هو الصلاح الكامل الذي هو المفهوم من قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩٦﴾ [الأعراف: ١٩٦] فما تولاهم إلا بعد صلاحهم ولولا صلاحهم ما تولاهم والفساد ضد هذا الصلاح وهو قيام العبد بنفسه مع ربه، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦] والأرض هي النفس كما أن السماء هي الروح، والإفساد فيها بالقيام بها دون ربها وإصلاحها قبل هذا الإفساد هي الفطرة التي فطر الناس عليها. وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] أي: بسبب ما كسبت أيديهم من الأعمال التي يعملونها بنفوسهم لا بربهم فالبر برّ الجسوم والبحر بحر النفوس وفسادهما ضد صلاحهما، وقال النبي ﷺ: «إن في ابن آدم مضغة إذا صلحت

صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب».

والمراد به هنا النفس لأن الصلاح والفساد يتأتى منها، والقلب بالمعنى الخاص صلاح كله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] يعني لا نفس إذ أصحاب النفوس لا عبرة لهم بشيء لاستقلالهم بنفوسهم دون ربهم بخلاف أصحاب القلوب فإنهم مع ربهم لا مع نفوسهم (فأودعناك) يا أيها الذي صلحت لنا (سرنا) الذي به أنت صادر عنا كغيرك من الأكوان وهو غيب الذات الأقدس في حضرة التجلي الأنفس والإيداع رفع الحجاب عن العين بعد محو نقطة الغين وظهور الواحد بعد خفاء الاثنين قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] فالسر ما به قيام الأوصاف والأسماء بالذات العلية وهو حضرة الله تعالى مما يلي الكائنات والأخفى ما لا يوصف ولا يسمى من الذات العلية وهو حضرة الله تعالى مما يلي غيب الغيب المنزه عن الظهور والبطون ولنا مما يناسب هذا من النظم في ديواننا «سحر الأحداق وبث الأشواق» قولنا:

شرفُ ناسوتيَّ بلاهوته	من جلَّ عن نعتي ومنعوته
محجبٌ خلفَ سجفِ الورى	صدا الفتى بنبيك عن صوتهِ
عنه به الألباب مشغولةٌ	تحصيلها دلّ على قوتهِ
وكل ما قد ماتَ في حبه	أدرك ما يرجوه في موته

فالناسوت الجسم واللاهوت الروح ولما نسب الله تعالى الأجسام إلى الخلق بقوله تعجبك أجسامهم قلت ناسوتي، وحين نسب الروح إليه تعالى بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] قلت بلاهوته وقولي جل عن نعتي ومعلوم أن نعتي نعته لي على مقدار ما جاء خطابه في لسان الشرع، ومنعوته هو من حيث نحن لا من حيث هو وهذا المقام الأول في المصراع الأول هو مقام السر الأعظم الذي أشرنا إليه، وفي المصراع الثاني مقام الأخفى المذكور، والله أعلم بحقائق الأمور (إذا لم يبق عليك) يا أيها السالك في طريق الله تعالى (حركة) باطنية ولا ظاهرية منسوبة في زعمك (لنفسك) بحيث كنت كالميزان تنزل فيه مياه الحركات الباطنة والظاهرة من العدم إلى العدم وهو ثابت بغيره لا تصرف له فيما ينزل فيه، كما قال ابن

العربي رضي الله عنه من جملة مشايخي في طريق الله تعالى الميزاب كان ينزل فيه المطر من السقف تعلمت منه معرفة الله تعالى، أو نحو هذا الكلام. وفي قوله عليك إشارة إلى نسبة الحركات الظاهرة والباطنة إلى النفس أمر قهري لا يمكن العبد التخلص منه إلا بمعونة من الله تعالى يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣﴾ [الرحمٰن: ٣٣] وذلك سلطان هو المعونة من الله تعالى والنصرة والتأييد (كمل يقينك) في الله تعالى باعتبار شهودك إياه في أفعاله فيك به لا بك فأنت حينئذ كامل اليقين من العلماء الراسخين (وإذا لم يبق لك وجود) ظاهر (عندك) بأن زلت من بصرك وبصيرتك كزوال الخمر إذا صار خلاً، وطهر بعد نجاسته فإن ذلك الجرم السيال باقٍ على ما هو عليه غير أن أوصافه زالت وتبدلت بأوصاف أخر غير الأوصاف الأولى وكذلك زوالك أنت من بصرك، وبصيرتك تزول أوصافك القاصرة عنك وتتبدل بأوصاف أخر كاملة فلم تكن أنت بعد ذلك بل أنت زلت، وظهر غيرك مكانك وهو الحق تعالى والله يرى الله (كمل توحيدك) حيث لا وجود لك ولا لغيرك حينئذ في بصرك وبصيرتك وإنما الموجود هو الله تعالى، وهو كمال التوحيد إذ لا وجود لشيء فيه مع الله تعالى، فإن وجودك عندك في حالة توحيدك كان مانعاً لك من كمال التوحيد، فلما زال وجودك عنك كمل توحيدك، كما أن حركتك لنفسك كانت مانعة لك عن كمال اليقين بالله تعالى، فلما زالت حركتك عنك لنفسك كمل يقينك (أهل الباطن) وهو القلب وما اشتمل عليه من الأسرار، وانطوى عليه من الأنوار، وهم علماء الحقيقة المكاشفون عن حقائق الأمور في جميع الأطوار (مع اليقين) بالله تعالى في كل شيء على التنزيه المطلق، فلا يغيب عنهم على كل حال فهم ينظرون به إليه ببواطنهم فقلوبهم طاقات رؤيته على ما هو عليه في كل شيء كما أن أبصارهم طاقات رؤيته لابساً عليهم صورة كل شيء، فالباطن للباطن والظاهر للظاهر فمن نظر بباطنه إلى كل شيء رأى باطن كل شيء، وهو وجه الحق تعالى الذى قال تعالى فيه: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: ٨٨] ومن نظر بظاهره إلى كل شيء رأى ظاهر كل شيء وهو ذلك الشيء الهالك قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ

ﵟٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧ﵞ [الروم: ٧] وفي الآخرة يعلمون إن الله هو الحق المبين فالدنيا كلها أغيار للحق تعالى، والآخرة لا أغيار فيها للحق تعالى، بل جميع ما فيها بالله لا مع الله والدنيا جميع ما فيها مع الله لا بالله، ولهذا كانت ملعونة وملعوناً ما فيها إلا ذكر الله وما والاه كما ورد في الحديث، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ. . .﴾ الآية [محمد: ٣٦] وفي هذا الحديث كل لهو ابن آدم حرام إلا ثلاثة وذكرها بأنها مناضلته بقوسه وركضه لفرسه وملاعبته لزوجته، وهذه الثلاثة لهو لكن يقصد به بقاء ابن آدم في الدنيا، إما بالشجاعة والفروسية فلدفع الأعداء وكف الإيذاء، وإما بالملاعبة فلبقاء التناسل وتكثير الذرية، فهو لهو بالحق لا عن الحق وما عداه حرام. فالحياة الدنيا بغير الله تعالى حرام، والآخرة حينئذ خير وأبقى وأما بالله تعالى فليست الحياة فيها هي الحياة الدنيا، بل هي الحياة الباقية التي لا تزول وإنما ينقل صاحبها من دار إلى دار لأنه شهيد يشهد الله تعالى في كل شيء، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ۝١٦٩﴾ [آل عمران: ١٦٩] وصاحب هذا المقام قتل نفسه في محبة الله تعالى بأسياف المجاهدة الشرعية في حرب أعدائه من الهوى والشياطين كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾ [البقرة: ٥٤] وإنما أمرهم بالتوبة أولاً باعتبار أن حياتهم الدنيا لهو ولعب عن الحق تعالى وكل لهو حرام ولا خلاص لهم إلا بقتل أنفسهم فتوبتهم قتل أنفسهم وهو قول النبي ﷺ: «موتوا قبل أن تموتوا» وهو الموت الاختياري قبل الموت الاضطراري وهو موت عيسى عليه السلام الذي قال الله تعالى عنه: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ﴾ [آل عمران: ٥٥] والذين اتبعوه هم الذين ماتوا الموت الاختياري وما عداهم هم الذين كفروا أي ستروا الحق تعالى بحياتهم الدنيا التي هي لعب ولهو وأخبر تعالى في هذه الآية أن أهل الموت الاختياري هم شهداء الله تعالى في أرضه باقون إلى يوم القيامة فوق أعدائهم من أهل اللهو واللعب، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] (وأهل الظاهر) وهو النفس والجسم وما

يخطرْ له خاطر كمل يقينه، ومتى تحرك قلب صاحب الإيمان بغيرِ الأمر نَقُصَ إيمانه، ومتى تحركَ بالأمر كمل إيمانه.

يحتويان عليه من الحجاب والغفلة عن الحق تعالى وهم علماء الشريعة فقط من غير معرفة الحقيقة القائمون بنفوسهم في كل ما امتثلوه أو اجتنبوه لا الداعون إلى الله على بصيرة بل بأنفسهم (مع الإيمان) بالله تعالى إيماناً بالغيب كإيمان الأكمه بالألوان، فهم ينظرون إلى الله تعالى بنفوسهم وعقولهم فلا يرونه لأنهم ينظرون بغيره، فلا يرون إلا غيره أولئك ينادون من مكانٍ بعيد وكونهم مع الإيمان بالغيب أنهم متى فارقوه كفروا فهم واقفون مع الإيمان بالغيب لا مع الله تعالى كأهل الباطن الذين هم مع اليقين بالله تعالى في جميع الأمور، ثم بين رضي الله عنه نقصان كل فريق منهما، وكماله في مرتبته حيث قال (**فمتى تحرك**) باطناً أو ظاهراً (**قلب صاحب اليقين**) الذي هو من أهل الباطن والمراد حركة منسوبة عنده إلى قلبه بحيث يقول في نفسه تحرك قلبي من غير أن تكون الحركة صادرة عن ربه في شهوده ذلك (**نقص يقينه**) بالله تعالى بسبب تلك الحركة التي تحركها قلبه، فادعاها لنفسه وهي لربه (**ومتى لم يخطر له خاطر**) في شيء غير شهود الله تعالى في ذلك الشيء الذي خطر له شهوداً بالله تعالى لا بنفسه على التنزيه المطلق (**كمل يقينه**) بالله تعالى حينئذ لزوال شهود الغير من عين بصيرته، واقتصاره على شهود الحق تعالى في كل ما يشهده بالحق تعالى لا بنفسه، وما أحسن قول سيدي علي وفا المصري قدس الله سره العزيز:

تـجـرّد عـن مـقـامِ الـزهـدِ قـلـبـي   فـأنـتَ الـحـقُّ وحـدك فـي شـهـودي
أأزهـدُ فـي سـواك ولـيـس شـيء   أراهُ سـواكَ يـا سـرَّ الـوجـودِ

(**ومتى تحرك قلب صاحب الإيمان**) بالله تعالى الذي هو من أهل الظاهر حركة باطنية أو ظاهرية صادرة عنده من نفسه (**بغير الأمر**) الإلهي الواحد الذي به قيام كل شيء على حسب ما هو مؤمن به إيماناً بالغيب (**نقص إيمانه**) باعتبار تلك الحركة التي تحرك بها قلبه بنفسه لا بأمر الله تعالى في زعمه (**ومتى تحرك**) قلبه (**بالأمر**) الإلهي لا بنفسه في علمه، كما هو في حقيقة الأمر كذلك وإن لم يشعر (**كمل إيمانه**) لزوال نسبة شيء من الأشياء عنده إلى غير أمر الله تعالى الذي قام به كل شيء على حد

مقتضى إيمانه بذلك إيماناً غيبياً، واعلم أن صاحب اليقين الذي هو من أهل الباطن لا حركة له في بصيرته، إذ لا وجود له عنده، بل الوجود كله عنده لله تعالى وحده على اختلاف حضراته تعالى ولهذا متى تحرك قلب صاحب اليقين نقص يقينه لكونه وجد عند نفسه بسبب حركته لنفسه، ومتى لم يتحرك فيقينه كامل، وأما صاحب الإيمان الذي هو من أهل الظاهر فله حركات في بصيرته وله سكنات لكونه موجوداً عند نفسه، ولكن حركاته، وسكناته ووجوده عنده بأمر الله تعالى لا بنفسه، وعنده الوجود قسمان، وجود الله تعالى قائم بنفسه ووجود العالم قائم بأمر الله، ولهذا متى تحرك قلب صاحب الإيمان بغير الأمر الإلهي نقص إيمانه لغفلة عن شهود قيام الوجود بأمر الله تعالى، ولزعمه قيام حركته بنفسه ومتى تحرك بالأمر كمل إيمانه لجريانه على مقتضى مقامه في قيام الأشياء بأمر الله تعالى ثم بين رضي الله عنه التفاوت بين مقام اليقين، ومقام الإيمان بقوله.

(**معصية أهل اليقين**) الذين يشهدون أن الوجود كله وجود الله تعالى متنوعاً بأنواع حضراته في مظاهر تجلياته، ولا يشهدون وجوداً آخر مع وجوده تعالى، فإذا عصوا الله تعالى بشهودهم غيره في خواطرهم فتلك المعصية سواء ترتب عليها في ظواهرهم فعل أولاً (كفر) بالله تعالى عندهم أي ستر للحق على ما هو عليه، والكفر في الشريعة هو الستر وذلك لانكشاف الحق تعالى عندهم في كل شيء وعدم التباسه عليهم في شيء من الأشياء مطلقاً فإذا التبس عليهم مرة في شيء ما فقد كفروه أي: ستروه فتكليفهم على حسب وسعهم كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ولهذا لما كان إبليس في هذا المقام وكان يقرره ويعلمه للملائكة أراد الله امتحان إبليس والملائكة فأمرهم بالسجود لآدم عليه السلام، وتقدير ذلك إن كنتم في مقام اليقين بي بحيث تشهدونني في كل شيء ولا تجحدوني في أي مظهر ظهرت لكم به فاسجدوا لهذا المظهر الجديد الذي أظهرته لكم ليتبين عندكم صحة يقينكم بي وكذبكم في ذلك، فسجد الملائكة كلهم أجمعون لله وحده الظاهر لهم بآدم عليه السلام، من وراء ستر هذه النشأة الآدمية وظهر لهم صدقهم في شهود هذا المقام لأنهم كانوا مشتغلين بشهوده في وقت تقدير إبليس لهم ذلك، وتعليمه إياهم وامتنع إبليس من السجود وظهر لهم

وللملائكة كذبه في شهود هذا المقام الذي كان يعلمه لهم لأنه كان في وقت تعليمه لهم ذلك مشتغلاً بالتعليم غائباً عن الشهود بعكس ما كانوا هم فيه فأظهر الله تعالى ذلك من إبليس بإخباره عن نفسه، حيث قال: ءأسجد لمن خَلَقْتَ طيناً؟!.. مع أنه ما أمر أن يسجد لمن خلقه الله تعالى من الطين، وهو آدم عليه السلام، بل أمر أن يسجد لله تعالى الظاهر له على زعمه في كل شيء لا لغيره تعالى على مقتضى ما كان يزعم من مقام اليقين في شهود الله تعالى وحده في كل شيء وعدم شهود شيء معه تعالى، فأظهر الله تعالى انحجابه عن الصدق في هذا المقام، لما كان يعلمه للملائكة امتحاناً من الله تعالى وأظهر الله تعالى صدق الملائكة عليهم السلام في هذا المقام بالفعل حيث سجدوا في الحال مبادرين لما أمرهم الله تعالى على حسب مقامهم الذي كانوا فيه، وهو شهودهم الله تعالى في كل شيء، وعدم شهود شيء معه تعالى. وللشيخ الأكبر رضي الله عنه في هذا المعنى من أبيات قوله:

لو أنَّ إبليس رأى من آدمَ   نورَ حماها عليه ما أبى

وقال الشيخ شرف الدين ابن الفارض رضي الله عنه وأرضاه:

ولو خطرتْ لي في سواكَ إرادةٌ   على خاطري سهواً قضيت بردتي

فقوله: قضيت بردتي، يعني على مقتضى مقامي الذي أنا فيه الآن، وهو مقام اليقين في شهود الله تعالى وعدم شهود شيء معه تعالى، وكانت هذه الردة حينئذ كردة إبليس كما ذكرنا (ومعصية أهل الإيمان) الذين يشهدون أن الوجود كله قائم بأمر الله تعالى، وهو غير وجود الله تعالى ووجود الله تعالى وراء ذلك يؤمنون به إيماناً بالغيب، فإذا عصوا الله تعالى بشهودهم شيئاً قائماً بغير أمر الله تعالى، فتلك المعصية عندهم سواء ترتب عليها فعل بجوارحهم أو لا (نقص) في إيمانهم ذلك وليس بكفر عندهم، حيث أنهم في حال كمال إيمانهم يشهدون وجوداً آخر، وهو وجود العالم غير وجود الله تعالى قائماً بأمر الله تعالى، ولم يكن ذلك عندهم كفراً بسبب جعلهم هذا الوجود الآخر، الذي هو وجود العالم قائماً بوجود الله تعالى لا بنفسه، وكان هذا وسعهم في ذلك، فكلفهم الله تعالى به فإذا خرج عن شهودهم ذلك الشيء، ولم

والمحبُ متكل، والعارفُ ساكنٌ والموجودُ مفقودُ، لا سكونَ لمتقي، ولا

يجعلوه قائماً بأمر الله تعالى بل بنفسه كان هذا نظير جعلهم هذا الوجود الآخر غير وجود الله تعالى، فأوجب نقصان إيمانهم كما أن مقام إيمانهم الكامل ناقص بالنظر إلى مقام أهل اليقين الكامل، وليس النقصان عندهم بكفر لهبوط مقامهم عن مقام أهل اليقين، ومن هنا قيل حسنات الأبرار سيئات المقربين (المتقي) لله تعالى في كل فعل، أو ترك أي المحترز منه تعالى بفعل ما أمره وترك ما نهاه عنه مع الإخلاص في ذلك (مجتهد) في تقواه ليلاً ونهاراً على كل حال، ومتى ترك اجتهاده في ذلك فليس بمتقي، بل هو فاسق حينئذ إن اعتقد ما يتقيه حقاً وإلا فهو كافرٌ، فالهبوط من مقام التقوى إما إلى الفسق وإما إلى الكفر نعوذ بالله تعالى، وهذا مقام عامة المؤمنين بعد مقام توبتهم، وأصحاب هذا المقام هم أهل العلم والعمل (والمحب) لله تعالى، في عين محبته لكل شيء إذ كل شيء هالك في بصيرته إلا وجه الحق تعالى فمحبته لكل شيء هي محبته للحق تعالى في جميع حضراته الظاهر بها على حسب إدراكه (متكل) على الله تعالى حق الاتكال في جميع أموره الدنيوية والأخروية ظاهراً وباطناً على كل حال وذلك لأن المحبة أول طور من أطوار المعرفة، وآخر طور من أطوار العلم والعمل، فالعلم والعمل ينتج المحبة والمحبة تنتج المعرفة. فصاحب العلم والعمل مجتهد، وصاحب المحبة تاركُ الاجتهاد لاتكاله على محبوبه الفاعل به ما يشاء والحاكم عليه بما يريد، حتى لو اجتهد وترك اتكاله ساعة رجع إلى مقام المتقي وليس بمحب حينئذٍ (والعارف) بالله تعالى الذي أنتجت له محبته لله تعالى معرفته به تعالى، وأنتج له علمه وعمله محبته لله تعالى فهو صاحب المرتبة الثالثة علم وعمل، فأحب فعرف ولو لم يعلم ما عمل ولولا إنه علم وعمل ما أحب، ولولا إنه أحب ما عرف، فالعلم شرط العمل والعمل شرط المحبة والمحبة شرط المعرفة، فالمراد بالعلم العلم بالله وبأحكامه، وبالعمل العمل مع الإخلاص، وبالمحبة محبة الحق تعالى، وبالمعرفة المعرفة به تعالى فكم من عالم ليس عالماً بالله تعالى ولا بأحكامه وكم من عالم بالله تعالى وبأحكامه غير عامل بذلك أو عامل بغير ما علم من ذلك جهلاً منه بكيفية العمل، أو عامل بذلك على وجهه غير مخلص في عمله لله تعالى، أو مخلص في ذلك بغير دوام فلا يصل بسبب ذلك الانقطاع إلى مقام المحبة فلا يحصل على المعرفة، وكم من محب التبست عليه محبته بمحبة ما سوى الحق تعالى، فظن أن محبته لغيره تعالى أو علم من محبته له تعالى لكن بحسب ما يعلم

حزمَ لمحبٍ، ولا حركةَ لعارفٍ، ولا وجودَ لمفقودٍ.

ما تحصلُ المحبة إلا بعد اليقين.

ذلك الشيء الذي أحبه فكفر بالحق تعالى، وهو لا يشعر فانطمست بصيرته عن معرفة الله تعالى، ولنا من النظم في هذا المعنى من أبيات في ديواننا في قولنا:

يا مَنْ يبيتُ وللهوى هو عابدُ	قِفْ ساعةً حتى أعلمك الهوى
جهلٌ بمن تهوى لأنك جاحدُ	إنَّ المحبةَ فيكَ كدرُ صفوها
لرأيتَ من لهواه أنت القاصدُ	فلو انمحى عن عينِ ناظركَ السوي
وتظلُ تجحدُ ذاته وتعاندُ	لكن عيونك عن مرادك في عمى

(ساكن) لا حركة له من نفسه في باطنه ولا في ظاهره وقد زال اجتهاده بمحبته وزال اتكاله بمعرفته فهو ساكن لا مجتهد، ولا متكل حتى لو ترك سكونه رجع إلى مقام المحبة وزال عنه طور المعرفة الذي لا حركة له فيه من نفسه (والموجود) بربه (مفقود) عن نفسه فوجوده فقده، فلا حركة له ولا سكون فكما زالت عنه الحركة زال عنه السكون أيضاً، في مقام الفقد، وقام وجود الحق تعالى مقام وجوده، فهو الموجود المفقود، وهذا نهاية الوصول إلى الله تعالى ومتى ترك فقده رجع إلى مقام المعرفة.

ثم بيّن رضي الله عنه أحوال أهل هذه المقامات الأربعة مقام التقوى ومقام المحبة ومقام المعرفة ومقام الفقد فقال (لا سكون) ظاهراً ولا باطناً (لمتقي) عن الحركة لتقواه فهو مجتهد دائماً في التقوى امتثالاً واجتناباً (ولا حزم) ولا ضعفاً (لمحب) بل هو متكل على محبوبه دائماً في كل حال لا يحب إلا ما أحبه له محبوبه (ولا حركة) في الظاهر، ولا في الباطن (لعارف) بل هو ساكن دائماً تحت سطوات القدرة الإلهية (ولا وجود) في البصر، ولا في البصيرة (لمفقود) بل الموجود عنده هو الله تعالى وحده على كل حال، فالمتقي مشغول دائماً باجتهاده في مرضاة من اتقاه، والمحب مشغول باتكاله على محبوبه، والعارف مشغول بسكونه إلى معروفه والموجود مشغول بفقده في وجود من أوجده، والله تعالى من وراء جميع ذلك محيط ثم شرع قدس الله سره في تفضيل مقام المحبة على مقام اليقين فقال:

(ما تحصل المحبة) الإلهية الحقيقية التي هي موجودة في كل شيء، من إنسان وغيره، لكن من وجدت فيه سترت عنه بصور الأشياء، فلو انجلت مرآة القلب

لزالت صور الأشياء وتطهرت المحبة الحقيقية الإلهية من نجاسة شرك الأغيار كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] يعني نجاسة الشرك (إلا بعد) حصول (اليقين) بالله تعالى في القلب واليقين يرفع عن عين البصيرة أستار جميع الأغيار، فتنمحي صور الكائنات من لوح النفس، فترجع النفس قلباً والقلب روحاً والروح أمراً إلهياً، والأمر الإلهي يرجع إلى الله وإلى الله تصير الأمور، وعند ذلك تظهر المحبة الإلهية في العبد بعد محو العبد فتكون محبة الحق للحق، وهي دين أهل الله تعالى كما قال الشيخ الأكبر رضي الله عنه من أبيات له:

أدينُ بدينِ الحب أني توجهت ركائبه فالحبُ ديني وإيماني

وقال الشيخ شرف الدين بن الفارض قدس الله سره العزيز:

وعن مذهبي في الحب مالي مذهبٌ وإنْ ملتُ يوماً عنه فارقتُ ملتي

ثم بين مقام المحبة بقوله:

(المحب الصادق) في محبة الله تعالى (قد خلا) أي: تفرغ (قلبه مما سواه) أي: سوى نفسه بعد خروجه عنها فهو محب لنفسه بعد فنائه عن نفسه فالحق محب للحق كما يشير إليه قول ابن الفارض قدس الله سره بقوله:

فكنتُ بها صباً فلما تركتُ ما أريدُ أرادتني لها وأحبت

فصرتُ حبيباً بل محباً لنفسهِ وليس كقول من نفسي حبيبتي

ومن قول ابن العربي رضي الله عنه:

حقيقتي همت بها وما رآها بصري

.... الخ الأبيات

ولي من النظم في هذا المعنى من أبيات قولي:

وعندي إلى رؤيا جمالي تشوق كثير وما عشقي لغير حقيقتي

ويا لهف أحشائي على حسني الذي فؤادي به صب ويا فرط لوعتي

أحن إلى ذاتي صباحاً وفي المسا وغاية قصدي في العوالم رؤيتي

فهو ناقص المحبة.

من تلذّذ بالبلاء فهو موجودٌ، ومن تلذذ بالنعمةِ فهو موجود،

وقد وعدتني اليوم نفسي بوصلها غداً فمتى مني تقوم قيامتي

وأرفع عن وجهي خماري مجرداً ثيابي عن ذاتي وأهتك سترتي

ويجوز أن يكون الضمير في قوله، مما سواه راجعاً إلى محبوبه المفهوم من ذكر المحب وإن لم يتقدم له صريح ذكر لكن يلزم عليه أن يكون عنده مغايرة بينه وبين محبوبه، فلا يخلو قلبه مما سواه، وهو عنده سوى محبوبه (وما دام عليه) أي على المحب الصادق (بقية محبة لسواه) أي: لسوى المحب الصادق من حيث أنه عين محبوبه والسوي صادق بالمحب من حيث هو في نفسه (فهو) أي ذلك المحب الصادق (ناقص المحبة) حينئذٍ إذ وجدت فيه محبة لسوى محبوبه، فهو يعتقد وجود شيء سوى محبوبه، ولا وجود لشيء سوى محبوبه في حقيقة الأمر كما قال النبي ﷺ: أصدق كلمة قالها شاعر لبيد:

ألا كُلُّ شيء ما خَلاَ الله باطلُ البيت

والباطلُ عدمٌ والعدم لا وجودَ له، وإنما الوجود للحي القيوم ظاهر بمظاهر أسمائه وصفاته متحولاً في أطوار تجلياته، كما ورد في حديث مسلم: إن الله تعالى يتحول يوم القيامة في الصور وهو تحولاً يرجع إلى إزالة حجب العدم كما تطرد الظلمة بظهور النور، فيتبين كل مستور فثبت أن بصيرة هذا المحب حينئذٍ قاصرة حيث خفي عليها ظهور الحق تعالى في طور من أطوار حضراته العلية والبصيرة القاصرة جميع شؤونها قاصرة فمحبتها قاصرة، فهو حينئذٍ ناقص المحبة بهذا السبب ثم بين مقام الفقد بقوله:

(من تلذذ بالبلاء) الذي يرسله الله تعالى إليه على يد نفسه أو غيره بأن وجد للبلاء عنده فرحاً وسروراً، مع أنه يقتضي الحزن والألم (فهو موجود) حينئذٍ قائمٌ مع نفسه، حيث وجد منه مقدار ما يصرف به عنه الحزن والألم، ويجلب له به الفرح والسرور، ولو كان مفقوداً كما يزعم عن نفسه لكان قائماً بالحق تعالى، لا بنفسه والحق تعالى ما أرسل إليه ذلك البلاء، إلا ليدركه به الحزن والألم، كما ورد أن عارفاً بالله تعالى جاع يوماً فبكى فقال له مريده: أتبكي من الجوع؟ قال: ما جَوّعني إلا

لأبكي. وورد عن النبي ﷺ أنه بكى يوم موت ولده إبراهيم عليه السلام، ومعلوم أنه أكمل حالاً من ذلك الولي الذي ضحك لما مات ابنه فقيل له في ذلك فقال: «كيف لا أفرح بشيء أراده الله تعالى» وقد اتفق لي هذا لما مات ابن لي، وما كان لي غيره، فقصد بعض أصحابي تعزيتي في ذلك فلم أقدر أن أضبط نفسي من الفرح والسرور حتى غلب عليّ الضحك في ذلك، فتكتمته جهدي كي لا أنسب عنده إلى قلة العقل، ثم عرفت نفسي بنقصان هذا الحال حينئذٍ لعدم جرياني على مقتضى ما أراده الله تعالى، بما جعل البلاء علامة عليه، والحاصل أن العبد مادام في مجاهدة النفس والهوى والشيطان، فالتلذذ بالبلاء كمال له حينئذٍ، فإذا غاب عن ذلك بشهود ربه في كل شيء على التنزيه المطلق يبقى الكمال في حقه جريانه على مقتضى طبيعته إذ لا غير الله عنده حينئذ فكيف يتكلف لشيء ولا شيء. قال النبي ﷺ: «أنا وأتقياء أمتي برآء من التكلف»[1] وقال تعالى له عليه السلام: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦﴾ [صَ: ٨٦] ونفي التكلف يقتضي جريان الأمور على حسبها، فإن قلت في هذا الذي ذكرت اتباع الهوى والاسترسال مع ما تقتضيه الطبيعة وتميل إليه النفس، وهو مذموم شرعاً فكيف يكون الكمال بالتكليف على غير الوجه المشروع؟ قلت: اتباع الهوى بهدي من الله تعالى للعبد، وهو رفع حجاب النفس عنه ليس بمذموم شرعاً. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠] فلو اتبع هواه بهدي من الله لزالت نفسه بهداه، ولم يكن اتباعه هواه مذموماً حينئذ شرعاً وهو المراد بعدم التكلف (ومن تلذذ بالنعمة) أيضاً، وهي ما يسدي الله تعالى إلى عبده من العطايا والمنح في الظاهر والباطن، مما يقتضي الفرح والسرور (فهو موجود) مع نفسه حينئذ حيث وجد منه ما يفرح به غير الله تعالى، فلو تلذذ بالنعمة بربه لا بنفسه، لم يكن هو موجوداً عند نفسه حينئذ، وتم له مقام الفقد إذ لم يتكلف التلذذ بنفسه إذ لا نفس له مع ربه، لا سيما وقد نسب الله تعالى النفس إليه في قوله (ويحذركم الله نفسه) كما نسب الروح إليه أيضاً في قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] وهذه النسبة نظير

(١) أخرجه الشوكاني في (الفوائد المجموعة ٨٦)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ٦٧).

والمحبوبُ أنفاسه قدرة.

نسبة العبد كله إليه في قوله عز وجل: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩] وما نسب الله تعالى النفس إليه إلا بعد أن خرج العبد عنها فلو لم يخرج عنها كانت نفس العبد لا نفس الرب، فلا يتم مقام الفقد حينئذ **(فإذا أفناهم)** أي: أفنى الحق تعالى العارفين به **(عنهم)** أي: عن نفوسهم بأن عرفوها فألقوها فنسبها إليه تعالى عندهم فعرفوه بها، فكانت نفسه لا نفسهم، فحذرهم الله تعالى منها أن ينسبوها إليهم بعد ذلك حيث قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨] ثم قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] فأخبر الله تعالى أن مصير نفوسهم إليه وأخبر أنه رؤوف بالعباد إذا تركوا نفوسهم له حذراً منها لعدم قدرتهم على تحمل مشقاتها في الدنيا والآخرة **(ذهب)** عنهم حينئذ **(التلذذ بالبلاء والنعمة)** لذهاب من يتلذذ منهم بذلك وهو نفوسهم فيبقى البلاء والنعمة يأتيان العبد من جهة الرب تعالى ابتلاء وامتحاناً له في مقام فقده فلا يجد أن أحداً يتلذذ بهما، ولا يتألم لهما فيرجعان إلى الرب تعالى يطلبان منه مقتضاهما في ذلك العبد فيظهر الله تعالى في ذلك العبد مقتضاهما من الحزن والفرح فيكون العبد حينئذ قابلاً ذلك بربه لا بنفسه فلا يتزحزح عنه مقام الفقد وقد ظهر بمقتضى طبعه وبشريته، ثم شرع في ذكر التفاوت بين مقام المحبة ومقام الفقد بأن صاحب مقام المحبة محب، وصاحب مقام الفقد محبوب، وشتان بينهما، فقال: **(المحب)** الصادق لله تعالى وهو الذي انجلت له محبته لكل شيء ولو لنفسه وذهب عنها صدأ الأشياء كلها فرجعت إلى محبة الحق للحق **(أنفاسه)** أي: كلماته التي يتكلم بها فإن الأنفاس من فم المتكلم وهي الهواء الداخل والخارج إذا خرجت من الجوف ومرت على قوالب مخارج الحروف تصير حروفاً، ثم تتركب بترتيب مخصوص فتصير كلمة، ثم تترتب الكلمات فتصير كلاماً، وما ثم شيء غير الهواء الخارج من الجوف المسمى نفساً فمن هذا السبب يعبر عن الكلمات بالأنفاس **(حكمة)** أي: إخبار عن حقائق الأمور لا بما يظهر منها كأنفاس غيره، والحكمة في الأصل إتقان الكائنات بحيث لا يكون أتقن منها وجميع مخلوقات الله تعالى هذا وصفها كما قال الإمام الغزالي رضي الله عنه: ما في الإمكان أبدع مما كان، ولو كان لكان. ومعناه: لو فرضنا فيما يمكن من الكائنات أشياء أبدع

مما أوجده الله تعالى ويوجده في الليل والنهار لكان هذا الموجود الآن أنقص إبداعاً، وكان النقص يدخل في صفة الله تعالى القديمة وهي بديع السموات والأرض والنقص على الله محال فأبدع منها محال ثم أطلقت الحكمة على العلم بهذا الإتقان الذي في الكائنات، وهو العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه من قيامها بالحق تعالى، وهلاكها في وجهه تعالى إلى غير ذلك من المعارف الإلهية والحقائق الربانية وهو علم أهل الله تعالى الذي اختصهم به دون غيرهم تعليماً منه تعالى لهم ذلك من غير واسطة أحد ليكون مقدمة للعلم به تعالى. قال عز وجل: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] وقال تعالى عن داود عليه السلام: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص: ٢٠] والحكمة ما ذكرنا من معرفة حقائق الكائنات، وفصل الخطاب: أي الخطاب الفاصل وهو خطاب الله تعالى نفسه بنفسه في الأزل حيث فصل فيما لم يزل بين هذه الكائنات الخارجة من العدم شيئاً فشيئاً، وهو العلم بكلمات الله التامات وهو عالم الأمر والحكمة عالم الخلق فيكون الذي أتاه الله تعالى لداود عليه السلام هو الخلق والأمر بسبب رجوعه إلى الله تعالى والله تعالى له الخلق والأمر، فصار هو أيضاً له الخلق والأمر خلافة إلهية، قال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦] والخليفة له ما للمستخلف (والمحبوب) لله تعالى وهو المفقود عند نفسه أعلى مرتبة من المحب لأن المحب طالب والمحبوب مطلوب والطالب تعبه على مقدار مطلوبه، وطالب الله تعالى مطلوبه عظيم، فتعبه عظيم، والمطلوب راحته على مقدار طالبه، ومطلوب الله تعالى طالبه عظيم فراحته عظيمة، وشتان بين التعب العظيم والراحة العظيمة، وحقيقة المحب والمحبوب في الحضرة العلمية الأزلية ترجع إلى الله تعالى من كونه أحب نفسه بنفسه فهو المحب لنفسه، وهو المحبوب لنفسه، وعلى كل واحدة علامة خارجة من العدم تسمى العالم لأن غيرها يعلم بها فهي علامة عليه فالمحب من كونه تعالى محباً طالب أبداً، والمحبوب من كونه تعالى محبوباً مطلوب أبداً وهما مقامان يعتوران على كل شيء، فكل شيء محب لغيره محبوب لغيره وللعارف المزية على غير العارف كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ

﴿وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩] (أنفاسه) أي: كلماته التي يتنفس عن قلبه بها من حمل المعاني (قدرة) يقدر بها على إنفاذ كل شيء أراده وذلك لأن المحب إذا كان مشغولاً بتتبع أوصاف محبوبه، ومنهمكاً في معرفة آثار جماله حتى صارت أنفاسه أي كلماته التي يتنفس بها عما يجده في صدره مما هو مشغول به ومنهمك فيه حكمة يجذب بها قلب السالي عن المحبة بالإعراض عن محبوبه لاستيلاء الغفلة عليه فإن المحبوب مشغول بإظهار صفاته لمحبه ومنهمك في تعريف آثار جماله بحيث صارت أنفاسه أي كلماته التي يتنفس بها عما يجده في صدره مما هو مشغول به ومنهمك فيه قدرة يوجد بها كلما أراد إيجاده من آثار جماله وأنوار كماله.

ثم ذكر التفاوت بين مقام التقوى ومقام المحبة بقوله:

(العبادات) جمع عبادة، وهي ما يفعله المتقي في مجاهدة نفسه طلباً لمرضاة ربه امتثالاً واجتناباً (للمعاوضات) جمع معاوضة اسم لما يعوضه الله تعالى للعبد جزاء على عبادته له وهي الثواب في الآخرة والنجاة من النار. يعني أن العبادات موضوعة شرعاً للمعاوضات، سواء كان قصد بها العبد المعاوضات أو لم يكن قصده ذلك، بل أخلص فيها لوجه الله تعالى الكريم (والمحبة) أي: محبة الله تعالى وحده في عين محبته كل شيء دون ذلك الشيء (للقربات) جمع قربة اسم للحالة التي يكون فيها العبد منكشف البصيرة عن تجليات الحق تعالى في حقائق الأشياء، يعني أن المحبة موضوعة شرعاً للقربات متى وجدت في العبد أوجبت قربه إلى الله تعالى على أنواع كثيرة فالمحبة أشرف من العبادة حيث كان وضع العبادة للمعاوضة ووضع المحبة للقربة، والمعاوضة إرادة غير الله تعالى، والقربة إرادة الله تعالى. واعلم أن العبادة والمحبة جهتان يتعاقبان على شيء واحد وهو القيام بأمر الله تعالى الذي قام به كل شيء امتثالاً واجتناباً وإنما يفترقان بالقصد القلبي. قال النبي ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم والمحبة في القلوب»[1].

(١) أخرجه ابن ماجة في (السنن ٤١٤٣)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٢٨٥، ٥٣٩)، ومسلم في (الصحيح ص ١٩٨٧)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٥١٤٣، ٥١٤٥)، وابن حجر في (فتح الباري ٧/ ٢١٤، ١٣/ ٣٧٣)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١/ ١٥٦، ٣/ ١٢٥، ٨/ ٢٣٢، ٤٤٩، =

فنبه عليه السلام بهذا الحديث على أفضلية مقام المحبة على مقام العبادة فإن القائم بأمر الله تعالى إذا عزل نفسه عن التصرف فيه وولى عليه ربه كأن يتلقى جميع ما يصدر منه من ربه فلا يجد له عملاً يسميه عبادة بل يجد ذلك مناً من الله تعالى عليه لا عبادة منه لربه فيقوم في مقام المحبة بلا عمل كما سيأتي في كلام المتن قدس الله سره، وإذا لم يعزل نفسه عن التصرف في أمره كأن يتلقى جميع ما يصدر منه من نفسه لربه فيجد له عملاً فيسميه عبادة ويحجب عن مقام المحبة لله تعالى فيكون في مقام العبادة. وفي ظاهر الأمر لا فرق بين صاحب مقام المحبة، وصاحب مقام العبادة إذ كلاهما قائمان بشيء واحد لكن الفرق بينهما بحسب القلوب، فالله تعالى ينظر إلى قلب العابد فيجده مشتغلاً بغيره تعالى معرضاً عن تلقي منن العبادات منه تعالى، مدعياً أن له عملاً يستحق به جزاءاً، وينظر إلى قلب المحب، فيجده مشتغلاً به تعالى، لا يلتفت إلى غيره متلقياً جميع العبادات حتى المحبة التي فيه مناً من الله تعالى عليه، معترفاً أنه لا عمل له، فإذا خرجت خلع الإحسان والإنعام من خزائن الحق تعالى خلع تعالى على العابد خلع المعاوضات والمثوبات وبقي المحب باهتاً لا يطلب شيئاً فيناديه الملك الحق: ماذا تريد؟ فيقول: أريد أن لا أريد، ثم ينظر الملك في أمره... ماذا يخلع عليه؟ فلا يرى له أنسب من خلع القربات، وحلل المناجاة لعلمه تعالى بأنه لا يعجبه شيء غير ذلك، إذ كل ما سواه عنده باطل هالك، فعند ذلك تقر عين المحب بقرب المحبوب، ويدرك المأمول والمطلوب كما قال تعالى فيما ورد من الحديث القدسي (أعددت) أي: هيأت (لعبادي) أي: العابدين لي بي لا بهم في نظري إليهم لا في نظرهم إليهم، إذ هم يرون ما منهم لي منة عظيمة عليهم مني، وأنا أرى ذلك الذي جعلته لهم عبادة منهم لي على حسب ما أردته منهم، فلذلك سميتهم عبادي وهم عندي أحبابي لتركهم كل ما سواي

= ٦/١٠)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٥/ ٣٣٠)، والبغوي في (شرح السنة ١٤/ ٣٤١)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٦/ ٤٦٠، ٧/ ٤٧٤)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥٣١٤)، وابن المبارك في (الزهد ٥٤٠)، والشجري في (الأمالي ٢/ ٢٠٤)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/ ٢٦٩، ٤/ ٣٥١)، وأحمد بن حنبل في (الزهد ٤٦)، والسيوطي في (الدر المنثور ٥/ ٢٣٨، ٦/ ٢٣١)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٤٨٠)، وابن كثير في (البداية والنهاية ٨/ ١٠)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٤/ ٩٨، ٧/ ١٢٤)، والقرطبي في (التفسير ١٦/ ٣٢٦، ٣٤٢)، وابن أبي حاتم الرازي في (علل الحديث ٨٩٥)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٤/ ١٦٣٣).

حتى عبادتي فلم يشتغلوا عني بشيء غيري، وأنا لم أتركهم من خلق طاعتي وعبادتي لهم حفظاً عليهم من توجه غضبي على من عصاني.

(الصالحين) في بواطنهم وظواهرهم للدخول إلى حضرتي والجلوس على سرائر مناجاتي ومنادمتي (ما لا عين رأت) من عيون الخلق مطلقاً، ولا أعينهم وذلك ظهوري في أعينهم فإني أريهم ذاتي على التنزيه المطلق، فيرون ما لا عين رأت (و)أسمعهم لذيذ خطابي فيسمعون ما (لا أذن سمعت) من آذان الخلق مطلقاً ولا آذانهم (ولا خطر) ذلك المرئي وذلك المسموع (على قلب بشر) في الدنيا ولا في الآخرة أبداً ولا على قلوبهم فضلاً عن أن تكون عين رأت مثله أو أذن سمعت نظيره.

واعلم أن الحق تعالى إذا تجلى يوم القيامة لعبده الصالح تجلياً خاصاً غير التجلي العام الذي لأهل هذا الوجود في عالم الدنيا، وكشف الحجاب عن عين البصر والبصيرة وأزال الوقر والصمم عن الأذن الجسمانية والروحانية رأى ذلك العبد ربه عز وجل وسمع خطابه فيعترف أنه رأى ما لا عين رأت وسمع ما لا أذن سمعت ولا خطر ذلك على قلب بشر على كل حال. وأما التجلي العام الذي لأهل هذا الوجود في عالم الدنيا فقد كشف الله تعالى فيه الحجاب عن عبده الصالح في حياته الدنيا فرأى أيضاً ما لا عين رأت من عيون أهل الغفلة والغرور وسمع أيضاً ما لا أذن سمعت من آذانهم ولا خطر ذلك المرئي والمسموع على قلب بشر منهم أبداً، ولكن ما في الآخرة أعلا وأنزه مما في الدنيا ولا تزال رؤية الله تعالى وسماع خطابه ينكشفان ويرتقي فيهما العبد من الدنيا إلى الآخرة، وفي الآخرة يزداد ذلك بمراتب ومقامات لا نهاية لها أبد الآبدين، ودهر الداهرين. وكلما ترقى العبد في ذلك مرتبة وجد ما قبلها حجاباً عليها ولا يستتر انكشاف أبداً، ولا ينسدل حجاب مطلقاً، وإنما الأخفى حجاب الأجلى، والأجلى استتار الأخفى.

وفي رواية أخرى للحديث القدسي المذكور (لما أرادوني) يعني العباد الصالحين وتعلقت إرادتهم بي (لي) أي: لأجلي لا لأجل نفوسهم، وأنا أعلم منهم ذلك (أعطيتهم) في مقابلة إرادتهم على الوجه المذكور (ما لا عين رأت) من ظهور جمالي وتجليات كمالي (ولا أذن سمعت) من لذة خطابي يوم سؤالي وجوابي. ثم ذكر كيفية وصول العابد إلى مقام المحب فقال:

أعطيتهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

إذا أفناك عن هواك بالحكمة، وعن إرادتك بالعلم صرت عبداً صرفاً لا هوى لك ولا إرادة، فحينئذٍ يكشف لكَ عن نفسك فتَضمحل العبودية في الوحدانية، فيفنى العبد ويبقى الرب تعالى.

(إذا أفناك) يا أيها العابد، أي: محقك الحق تعالى (عن هواك) أي: ميلك الصادر منك إلى أي شيء كان (بالحكمة) أي: بمعرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه، بالنسبة إلى تجلي الحق تعالى كما سبق (و) أفناك أيضاً (عن إرادتك) له تعالى كما قال بعضهم: إن من جملة القواطع عنه تعالى شهوة الوصول إليه (بالعلم) اللدني الذي تجده في قلبك من غير فكر ولا حفظ، ويمكن أن يكون المعنى إذا أفناك عن هواك أي: ميلك إلى المنهيات والمخالفات بالحكمة أي: بمعرفة عواقب الأمور فإن عقبى ذلك الوبال والخبال والعذاب في الآخرة وهو حكمة المنهيات والمخالفات، وإذا أفناك عن إرادتك أي: ميلك إلى المأمورات والموافقات بالعلم الذي يكشف لك عن جميع الأمور التي تصدر منك هو خالقها فيك على حسب ما قدرها عليك أردتها أم لم تردها (صرت) حينئذٍ (عبداً) له عز وجل لا لغيره من جميع ما تهوى وتريد (صرفاً) أي: خالصاً في ظاهرك وباطنك على كل حال (لا هوى لك) في شيء من الأشياء مطلقاً غير ربك المتجلي عليك بكل شيء (ولا إرادة) لك في غيره أبداً، وإنما هواك له وإرادتك له في عين هواك لكل شيء، وإرادتك كل شيء لأن الأشياء كلها هالكة، إلا وجهه فوجهه هو المهوي، والمراد عندك (فحينئذٍ) أي: حين إذ صرت عبداً له صرفاً (يكشف) الله سبحانه وتعالى (لك عن نفسك) التي كانت مستترة عنك بهواك وإرادتك لغيره تعالى، فيزول هذا الستر عنك وتصير نفسك مستترة عنك بهواك وإرادتك له تعالى ثم يزول هذا الستر الثاني عنك أيضاً (فتضمحل) أي: تنمحق وتفنى بالكلية (العبودية) التي فيك لله تعالى (في) ضمن صفة (الوحدانية) التي لله تعالى (فيفنى العبد) كما هو فانٍ في حقيقة الأمر على معنى أنه يزول التباسه بالموجود عن بصيرته التي هي البصر الإلهي بالنسبة إلى بعض ما هو عليه متعلق من الكائنات.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥] أي: هو بصير لهم بهم. وفي حديث المتقرب بالنوافل: وكنت بصره الذي يبصر به (ويبقى الرب) سبحانه

(وتعالى) على ما هو عليه باقياً أزلاً وأبداً، وهذا معنى قول بعض المحققين: حتى يفنى ما لم يكن ويبقى ما لم يزل.

وما أحسن قول الشيخ عفيف الدين التلمساني قدّس الله سره في هذا المشرب العذب:

أرى رسمها عندي يعوض عن رسمي ... فما بالهم في الحي يدعونني باسمي
وهل بعد ضوء الشمس يبدو لك الدجا ... وهل عندها يبقى على الأفقِ من نجمِ
إذا ما دعي الداعي بعلوة فاستجب ... ولكن إذا أفنتك عنك على علمِ
ولم تبقَ إن أبقتك إلا بها لها ... فأنت إذا حققت من عالم الوهمِ
فمل طرباً واشرب وطب ثُم غب فما ... نعيمك إلا سكرةٌ من هوى نعمِ
ومهما بقي للصحو فيكَ بقية ... يجد نحوك اللاحي سبيلاً إلى الظلمِ

(الشريعة) وقد تقدم بيانها (كلها قبض) لأنها حكم الله سبحانه وتعالى على نفوس المكلفين، والنفس متى دخلت تحت حكم غيرها انقبضت (والعلم) بالشريعة على ما هي عليه المسمى بالعلم اللدني، وهو الذي يجده المقبل على ربه عز وجل بطريق الفيض الإلهامي في معاني كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ (كله بسط) لأنه لا يبقى للنفس وجود حتى يتوجه عليها ما يقبضها من حكم غيرها عليها إذ تتحقق منه النفس بعدمها الأصلي، فيصير الخطاب الإلهي عليها باعتبار المعية الأزلية. فالحق سبحانه وتعالى هو الحاكم من حيث هو في حضرة الربوبية، والمحكوم عليه من حيث العبودية في حضرة القيومية (والمعرفة) بالله تعالى التي يتتجها العلم اللدني الواصل إلى العبد من الله تعالى بلا واسطة كعلم الخضر عليه السلام الذي قال تعالى فيه: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] فإن المسألة من الله تعالى وشرحها منه تعالى أيضاً (كلها إدلال) من العارف بربه عز وجل على ربه عز وجل حيث انخرق الحجاب بينه وبين ربه، فيصدر منه مع ربه ما لم يصدر من عبد مع مولاه ويحتمل منه ربه ما لم يحتمله من غيره. قال حجة الإسلام الغزالي رضي الله تعالى عنه: لا تستبعد رضاء الله تعالى عن العبد، مما يغضب به على غيره، ألا ترى إلى قول موسى عليه السلام: (إن هي إلا فتنتك ولهم عليّ ذنب فأخاف

أن يقتلون) وهذا من غير موسى عليه السلام، من سوء الأدب لكن من أقيم مقام الأنس يلاطف ويحتمل ولم يحتمل من يونس عليه السلام ما دون ذلك لكونه أقيم مقام القبض والهيبة، فعوقب بما عوقب به. وذلك الاختلافُ إما لاختلاف المقامات أو لما سبق في الأزل من التفاضل، وانظر كيف احتمل لإخوة يوسف عليهم السلام ما فعلوه بيوسف عليه السلام، ولم يحتمل للعزيز كلمة واحدة سأل عنها في القدر، وقال الحسن: احترقت أخصاص بالبصرة إلا خصاً بوسطها، فقيل لصاحبها: ما لخصك لم يحترق؟ قال: أقسمت على ربي أن لا يحرقها، ورأى أبو حفص رجلاً مدهوشاً فقال: ما لك؟ قال: ضلّ حماري ولا أملك غيره، فوقف أبو حفص وقال: لا أخطو خطوةً ما لم تردْ حماره فوراً، فظهر حمارهُ فوراً. قال الغزالي رضي الله عنه: وهذا يجري لذوي الأنس، وليس لغيرهم التشبه بهم، وقال الجنيد رضي الله عنه: أهل الأنس يقولون في خلوتهم أشياء هي كفر عند العامة، انتهى.

فمعنى قوله: هي كفر عند العامة إنهم لا يعرفون معناها الذي يقصده أهل الأنس في خطاب الله تعالى، وهم في مقام الإدلال والأنس كما لا يعرف الأكمه ما يقصده البصير باللون الأبيض والأحمر ونحوه.

(طريقتنا) معشر أهل الحقيقة واليقين الموحدين لله تعالى توحيداً ذوقياً شهودياً، والمراد بالطريقة السيرة والحالة التي هم فيها في الباطن والظاهر **(كلها محبة)** لله تعالى فقط، وهي ميل القلب إلى شهود الرب.

يعني إننا دائمون مائلون إلى الله عن كل شيء راغبون في شهوده عن شهود كل شيء، مشتغلون في معرفته عن معرفة كل شيء، متلذذون بمشاهدته في كل شيء عن مشاهدة كل شيء، لا نعرف ديناً ولا اعتقاداً ولا شيئاً من أنواع العبادات غير المحبة له تعالى.

وأما ما ظهر علينا مما يسميه غيرنا ديناً واعتقاداً وصلاة وصوماً وزكاة وحجاً ونحو ذلك من أنواع العبادات، فهو عندنا منن ونعم من الله تعالى علينا لا حول لنا في

إذا دخلت في العمل كنت لك، وإذا دخلت في المحبة كنت له، العابد راء لعبادته، والمحب راء لمحبته.

ذلك ولا قوة إلا به، فنحن موصوفون به، وهو الفاعل له وحده فينا كما قال الله تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩] يعني: إذا جاءك اليقين فلست بعابد حينئذٍ لأن العابد يحتاج إلى نفسٍ يعبد ربه بها، فإذا انطمست النفس بأنوار اليقين بقي العبد ساكناً تحت أمواج القدرة، تحركه كيف شاءت فإذا عبد فليس بعابد، بل هو موصوف بالعبادة في نظر غيره من أرباب النفوس، وليس موصوفاً بها في نظره هو كنظر أرباب القلوب، فقد انقلبت عينه في عينه، وهو على ما هو عليه من قبل، فهذه طريقة الجماعة من أهل الله تعالى.

(لا عمل) أي: ليست طريقتنا عملاً لأن العمل له عامل ومعمول له، وهي ثلاثة: عمل، وعامل، ومعمول له. فقد فات التوحيد مع التثليث، بل حقيقة ذلك أن الله تعالى كما خلق العبد بأعضائه وقواه الظاهرة والباطنة، خلق له جميع ما يصدر منه من أعماله الظاهرة والباطنة. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦] فهي أعماله إن نظر إلى نفسه، ولا عمل له بل هو وعمله عمل ربه إن لم ينظر إلى نفسه، وأقبل على ربه وأهل المحبة دائماً مقبلون على ربهم، ولا نفوس لهم لينظروا إليها فلا يتصور لهم عمل أبداً دائماً. على كل حال فليس العمل في طريقتهم بل هو في طريقة الغافلين المحجوبين عن الله تعالى **(و)** طريقتنا أيضاً **(فناء)** بالكلية عن كل شيء في شهود الله تعالى **(لا بقاء)** مع شيء من الأشياء مطلقاً لا نفساً ولا غيرها. ثم بيّن الأول بقوله:

(إذا دخلت) أيها العامل **(في العمل)** الخالص لله تعالى **(كنت)** ساعياً **(لك)** أي: لنفسك بحصول نجاة من الله، أو فوز لديه، فأنت حينئذ مشغول بحظوظ نفسك لا بربك **(وإذا دخلت في المحبة)** الصادقة لله تعالى **(كنت)** ساعياً **(له)** عز وجل لا لنفسك فتعبده محبة فيه لتظهر ربوبيته بعبوديتك لا لتنجو منه أو تفوز لديه. **(العابد)** لله تعالى دائماً **(راء)** لعبادته أي: ناظر إليها قاصد لها مشغول بها منهمك فيها ويلزمه من ذلك أن لا يكون ناظراً إلى ربه ولا قاصداً له ولا مشغولاً به ولا منهمكاً فيه وذلك نقص ظاهر حيث أعرض عن المحبوب وأقبل على العبادة فهو واقف عند كثرتها وقلتها ينتظر

إذا عرفته كانتْ أنفاسكَ به وحركاتك له، وإذا جهلته كانتْ حركاتك لك.

الجزاء عليها. (والمحب) لله تعالى (وراء لمحبته) أي: ناظر إليها معتبر لها مشتغل بها، ويلزم من ذلك أن يكون ناظراً إلى ربه مشتغلاً به معرضاً عن كل ما سواه، لأن المحبة ليست كالعبادة يلزم من الاشتغال بها الإعراض عن المعبود وذلك بسبب أن المحبة هي محبة واحدة من الرب إلى العبد ثم تنقلب عند وجود القلب من العبد إلى الرب كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] فإذا كانت في الرب للعبد لا تقتضي إعراضاً عن العبد بل إقبالاً عليه وإذا كانت في العبد للرب لا توجب أيضاً إعراضاً عن الرب بل إقبالاً عليه بخلاف العبادة فإنها ليست من أوصاف الرب بل هي من أوصاف العبد خاصة وهي مما يتميز بها العبد من الرب نظير الربوبية في الرب خاصة يتميز بها الرب من العبد، ومن لازم ما يميز أن يوجب أعراض المتميز عن غيره فإن قلت: ورد أن مجنون ليلى ما جاءته وقالت له أنا ليلى قال لها عني إليك فإن حُبك شغلني عنك، فقد تصور أن المحبة أشغلت المحب عن المحبوب فأوجبت الإعراض عنه. قلت: لم تكن ليلى حين جاءته هي محبوبته لانتقال محبته عنها من حيث هي ليلى إلى محبته لها من حيث التجلي الإلهي الذي أنتجها في هذا الوجود، فقد رجعت محبته إلى أصلها كما كان يحب ليلى ويرغب في لقائها وهو غافل عن حقيقة ما وقعت عليه المحبة، فلما انكشف عن بصيرته غبار الأغيار لمعت له الأنوار من خلف هاتيك الأستار فأعرض عن الدار وأقبل على الديار لأن السر في السكان لا في الديار. وكلامنا هذا يقتضي أن لمجنون ليلى قدماً في التحقيق على طبق ما ذهب الشيخ الأكبر إليه رضي الله عنه والله ولي التوفيق.

(إذا عرفته) يا أيها العبد، إذا عرفت الله تعالى بأن عرفت نفسك وغيرك من حيث تجليه تعالى بنفسك وبغيرك في حضرة علمه القديم وأنكرت نفسك وغيرك من حيث وجود آخر غير وجوده تعالى المتجلي به فلا وجود إلا لله تعالى وحده، وأنت وغيرك موجودون بوجوده لا بوجود آخر غير وجوده من غير حلول ولا اتحاد (كانت) حينئذ (أنفاسك) أي: كلماتك التي تتنفس بها عما يجده قلبك من المعاني التوحيدية والمعارف الإلهية والحقائق الربانية (به) أي: بحوله وقوته لا بحولك وقوتك وهو قوله

عليه السلام في حديث المتقرب بالنوافل: كنت سمعه وبصره ولسانه، ثم قال: فبي ينطق، يعني لا بنفسه إذ لا نفس له لزوالها بمعرفتها (وحركاتك) الظاهرة والباطنة، الاختيارية والاضطرارية في الخير والشر منسوبة كلها (له) سبحانه وتعالى عندك حيث هي صادرة منه تعالى وهو المتجلي بك في صورتك وأنت في علمه عدم محض لا وجدت ولا توجدت ولا أنت موجود مطلقاً وكذلك جميع ما هو حادث مثلك (وإذا جهلته) عزّ وجل بأن ظننت أن نفسك وغيرك موجودان بوجود مستقل غير وجود الله تعالى، ولم تعلم التجليات الإلهية في الحوادث الكونية (كانت) له حينئذ (حركاتك) كلها التي تتحرك بها في الباطن والظاهر اختياراً واضطراراً في الخير والشر، ولم يذكر الأنفاس لأن الجاهل بالله تعالى لا أنفاس له يتنفس بها عما يجده في صدره من العلوم إذ لا علم له وإنما موضع أنفاسه حركات في قلبه ولسانه (لك) أي: منسوبة عندك لنفسك لاستقلال نفسك وغيرك في زعمك بوجود آخر غير وجود الله تعالى لأنك جاهل به تعالى والجهل به يوجب الانقطاع عنه (العابد) لله تعالى وهو الذي يذل نفسه امتثالاً لأمر ربه واجتناباً لنهيه ظاهراً وباطناً، سراً وجهراً (ما له سكون) أي: إمساك عن الحركة النفسانية في عبادة ربه لأنه متى سكنت حركة نفسه عن العبادة خرج عن كونه عابداً فهو متحرك النفس دائماً في طاعة مولاه قائم فيها بنفسه لربه لا بربه لربه (والزاهد) أي: المعرض بنفسه عما سوى الله تعالى من الدنيا والآخرة وأعمالها فوق مرتبة العابد (ما له رغبة) أي: ميل ومحبة لشيء سوى ربه تعالى، فهو معرض بنفسه دائماً عن الأغيار راغب بنفسه في شهود الملك القهار، فلم يبرح عن الشرك الخفي في ليله والنهار إذ هو مع نفسه وهو يظن أنه مع ربه وما زهد فيه عين ما زهد عنه لو كان من أولي الأبصار قال القائل حيث يقول:

أأزهد في سواك وليس شيءٌ | أراهُ سواك يا سر الوجود

(الصديق) بالتشديد للدال المهملة مكسورة وهو الكثير الصدق في أقواله وأفعاله واعتقاداته أو الكثير التصديق بما يجب التصديق به من الغيب وغيب الغيب والصديقية مقام من مقامات القرب وهي استواء السريرة والعلانية في العبد فوق مقام الزاهد والعابد (ما له ارتكان) أي: اعتماد واتكال بظاهره وباطنه في جميع الأمور على

والعارفُ ما له حول ولا له قوة ولا اختيار، ولا إرادة ولا حركة ولا سكون.

غير من صدق في عبادته وزهد فيما سواه سبحانه قولاً وفعلاً واعتقاداً. ومتى اعتمد على سواه تعالى فقد خرج عن مقام الصديقية فليس له اعتماد على شيء ولا على نفسه فهو القائم بالله لله **(والعارف)** بالله تعالى المتحقق في معرفة العبد والرب والقائم بنفسه في عين قيامه بربه **(ما له)** بنفسه في غير تجلي ربه **(حول)** أي: تحول وانتقال من مكان إلى مكان أو حال إلى حال أو مقام إلى مقام، بل انتقاله في جميع ذلك بنفسه القائمة في حضرة تجلي ربه بربه فهو بنفسه بربه لا بنفسه فقط ولا بربه فقط فإن الذي بنفسه دون ربه صاحب شرك خفي والذي بربه دون نفسه صاحب سكر واستغراق ليس بعارف بنفسه ولا بربه، والعارف عارف بهما قائم بهما ليس عنده إلا واحد ولكن له حضرتان فهو يعطي كل حضرة حقها ويقيم الميزان ذا الكفتين واللسان **(ولا له قوة)** على شيء مطلقاً إلا بنفسه المعدومة في حضرة ربه الموجود **(ولا اختيار)** له في أمر من الأمور على كل حال إلا بنفسه التي هي عنده تجلي ربه العالم به عليه **(ولا إرادة)** له أيضاً أي: ميل إلى شيء من الأشياء إلا بنفسه الظاهرة له من ربه في تجلي ربه عز وجل **(ولا حركة)** له أيضاً **(ولا سكون)** في باطنه وظاهره إلا بنفسه التي هي عين تجلي ربه عليه وهو في علم ربه تعالى، فهو من حيث المتجلي ربه ومن حيث الصورة المتجلي بها نفسه. واعلم أن تجلي الحق تعالى ـ أي ظهوره في الصور ـ غير ممتنع شرعاً ولا عقلاً، أما شرعاً فقد ورد في «صحيح مسلم»: أن الحق تعالى يتحول يوم القيامة لأهل المحشر في غير صور اعتقاداتهم ويقول: أنا ربكم، فيتعوذون منه، ثم يتحول لهم في صور اعتقاداتهم فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه. والحديث طويل فقد صح ظهوره تعالى في الصور، وظهوره تعالى لموسى عليه السلام في صورة الشجرة ذات النار والنور وهي شجرة الزيتون في طور سيناء حق بلا شبهة ثم لما جاءها نودي يا موسى إني أنا ربك على حسب ما ورد في القرآن العظيم.

وأما عقلاً فإن الملائكة والجن قادرون على الظهور في أي صورة شاؤوا من غير أن تتغير صورهم الأصلية عما هي عليه وهم حادثون فكيف الله تعالى القديم لا يقدر على ذلك وهو على ما هو عليه، فإن قلت: إنما قدرة الجن والملائكة لأنهم حادثون وأما القديم فلو تصور في صورة لكان متغيراً حادثاً.

قلت: لو تصور في صورة وتغير في ذاته باعتبار ذلك التصور يلزم أن يكون

الموجودُ ما له وجود.

إذا استأنستَ به استوحشتَ منك.

حادثاً كما يفهم ذلك من لا علم له بكيفية تصور الملائكة والجن في الصور المختلفة من غير أن تتغير صورهم الأصلية، وأما إذا كان معنى التصور في الصور المختلفة من قبيل استحضار العالم بالشيء منا حين يستحضر صورة الشيء في نفسه من غير أن تتغير نفسه ولا يتغير هو عما كان عليه من قبل فلا مانع في العقل ولا في الشرع من تصور الحق تعالى لخلقه في صور مختلفة لا سيما وقد أطبق العقل والنقل على وصف الله تعالى بالعلم بكل شيء، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢] والعالم إذا أظهر معلومه فقد تصور في صورة معلومه لمن اطلع على معلومه من غير أن يتغير هو في نفسه وهذه المسألة لا ينكرها إلا جاهل بالحقائق أو متعصب على أرباب الطريق. ثم لما فرغ من ذكر العارف الذي هو في مقام الصفات شرع في ذكر المستغرق الذي هو في مقام الذات ولم يذكر حرفاً عاطفاً لعدم مناسبته مع ما قبله كأنه عالم آخر على حدة فقال:

(الموجود) بنفسه في حضرة تجلي وجود الحق تعالى حيث هو في مقام العارف بعد فقد نفسه في نفس المتجلي الحق سبحانه وتعالى حيث هو في مقام الصديق كما سبقت الإشارة إليه (ما له) في نفسه (وجود) ولا في حضرة التجلي عنده غير وجود المتجلي من غير تجل لخروجه عن الحضرات الإلهية واندراجه في غيب الهوية فمقامه جحود مقام العارف كما قلت في هذا الوقت من النظم:

وجـود ثُـم فـقـد لـلـوجـود	ويـرجـع بـعـد ذلـك لـلـشـهـود
ويـنـفـيـه ويـثـبـتـه الـتـجـلـي	بـإكـرام لـه مـنـهُ وجـود
فـمـن عـيـن إلـى غـيـن تـراه	ومـن غـيـن إلـى عـيـن الـوجـود
مـقـام مـحـمـد خـيـر الـبـرايـا	تـجـلـى وأسـتـار فـي الـقـيـود

(إذا استأنست) أيها السالك في طريق الله تعالى (به) أي: بالحق تعالى، بأن وجدت الأنس عندك بشهود نفسك عاملة أحسن العمل في حضرة تجلي ربك بك لا به تعالى من حيث هو فإنه لا أنس من هذا الوجه للحق تعالى أبداً ولا يمكن ذلك لأن

من اشتغل بنا له أعميناه، ومن اشتغل بنا لنا بصرناه.

المناسبة مرتفعة من الطرفين كما قال الشيخ الأكبر رضي الله عنه من أبيات له في «ترجمان الأشواق»:

وحشية ما بها أنس قد اتخذت   في بيت خلوتها للذكر ناووسا

ثم قال رضي الله عنه في شرح هذا البيت: أن هذه الحكمة العيسوية لا يقع بها إنس فإن مشاهدة الذات فناء ليس فيها لذة. كما قال السياري: ما التذ عاقل بمشاهدة قط لأن مشاهدة الحق سبحانه فناء ليس فيها لذة لعدم المناسبة فلهذا جعلها وحشية أي: أنها تشره إلى إمساكها النفوس الشريفة وهي لا تألف إليها لعدم المناسبة بين العبد وبين الرب انتهى. وقول الماتن محمول على استئناس العبد بنفسه الصالحة التي تجلى عليه بها ربه لا بربه كما ذكرنا ومتى استأنس بنفسه كان استئناسه بها من حيث أنها ظهور ربه عنده لا من حيث أنها نفسه فيقال: استأنس بربه لأن نفسه في علم ربه هي التي يمده ربه منها فيتجلى عليه بها فلولا أن فيها سعادة ما أسعده ربه أو شقاوة كذلك ما أشقاه ربه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨] ولولا أن أنفسهم لها أنفس مثلها في حضرة علم الرب تعالى ما كانوا أنفسهم يظلمون فيتجلى الحق تعالى بأنفسهم التي في حضرة علمه سبحانه على أنفسهم التي في ظاهر الكون ويظهر ما علم منها من خير أو شر، والخير فضل منه والشر عدل منه، فأنفسهم في علمه هي ربهم إذا عرفوها عرفوا ربهم وإن جهلوها جهلوا ربهم. قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِى لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ﴾ [يونس: ١٠٨] وفي الأثر من عرف نفسه فقد عرف ربه. فالاستئناس بالرب هو الاستئناس بالنفس لكن في عالم التجلي لا في عالم الغفلة. وأما الاستئناس بالحق تعالى من حيث هو لا من حيث تجليه في صورة النفس، فلا يمكن الاستئناس به مطلقاً (استوحشت منك) أي: من نفسك من حيث هي نفسك ونفرت منها لما ترى فيها من الوحشة والظلمة التي لا يزيلها عنها غير ظهوره تعالى بها.

ثم تكلم الشيخ رضي الله عنه في المقام الأنفس عن الجناب الأقدس فقال: (من اشتغل) في ظاهره وباطنه (بنا) أي: من أعرض عن جميع الأغيار وتعلق بجنابنا (له)

لأجل نفع نفسه الدنيوي أو الأخروي بأن يكون مراده القرب إلى الله تعالى والحصول على الدرجات العلى والسلامة من الشرك الخفي وإنقاذ نفسه من المهالك في الدنيا والآخرة فقد (أعميناه) عن رؤيتنا وشهودنا في كل شيء بسبب ذلك الغرض الحقير عندنا بالنسبة إلينا الذي قصده في اشتغاله بنا وانهماكه بمعرفتنا وإذا عمي في الدنيا ففي الآخرة كذلك، قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء: ٧٢] لأن المرء يبعث على ما مات عليه كما ورد في الحديث. وقد مات على الغفلة فيبعث عليها مع أنه صرف عمره في الطاعة والعبادة والمجاهدة في الله تعالى فما بالك بمن صرف عمره في المعصية والإعراض عنه تعالى فهو الأضل سبيلاً والأول هو الأعمى فقط (ومن اشتغل) كذلك (بنا) وأعرض عن كل ما سوانا (لنا) أي: لأجلنا لا لأجل نفسه بأن لم يقصد شيئاً في اشتغاله بنا غير ما أردناه نحن من خلق اشتغاله بنا له كما ورد في الخبر: يا ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك وخلقتك من أجلي فلا تشتغل بما خلق لأجلك عما خلقت لأجله (بصرناه) بتشديد الصاد المهملة على طريق المبالغة، أي: جعلنا بصره وبصيرته غير محجوبين عنا في مشاهدة كل محسوس ومعقول فلا يحس بشيء ولا يعقل شيئاً إلا ويشهدنا في ذلك الشيء من غير حلول فيه ولا اتحاد به ولنا من النظم في هذا المعنى:

ترك المرادُ له فكان مراداً ... وجرى بميدان الفناء جوادا

طلب الحبيب لأجله منه ولم ... يطلب له من نفسه لينادا

فهو الذي شرب الحقيقة صرفة ... فاختال إطلاقاً وفك قيادا

وبدا بأفلاك الوجود على الورى ... شمساً تنير خلائقاً وبلادا

ولنا من النظم أيضاً في هذا المعنى:

عرف المحبوب فابتهجا ... وعن الأكوان قد خرجا

مستهام ليس يقنعه ... غير لحظ العين وهب رجا

ضاق حتى لو تكون له ... وسعة الدارين ما انفرجا

والنوى والشوق أتلفه ... لم يزل في الحب منزعجا

إذا زال هواك يكشفَ لك عن بابِ الحقيقة فتفنى إرادتك، فيكشف لك عن الوحدانية فتحققت به أنه هو بلا أنت معه.

لــو لــمــن يــهــواه كــان دري — مــنــزلاً مــن شــوقــه عــرجــا
آه مــن لــي لــم أجــد أحــداً — عــنــه بــالإدراك لــي لــهــجــا
لــيــت لــو ألــقــى لــه ســبــبــاً — أو أرى لــي نــحــوه درجــا
ذاب صــبــري وانــقــضــى جــلــدي — والــتــوانــي أحــرق الــمــهــجــا
رام بــالأكــوان يــشــغــلــنــي — عــنــه كــي أســلــو فــشــوقــي جــا
بــي عــلــيــم غــيــر أن لــه — حــكــمــة تــهــزا بــكــل حــجــا

ثم بين ما ذكر فقال: **(إذا زال)** أي: فنى واضمحل عنك بالكلية **(هواك)** أي: ميلك إليه لغرض من أغراض نفسك كما سبق لا لأجله هو أو أعم من ذلك **(يكشف)** الله تعالى **(لك عن باب الحقيقة)** التي عليها أمرك وأمر كل شيء بأن يكون تعالى بصرك الذي تبصر به كما ورد في حديث التقرب بالنوافل.

فإذا كان الحق تعالى بصرك الذي تبصر به انكشفت لك حقائق الموجودات على ما هي عليه في بصر الحق تعالى الذي هو بصرك الذي تبصر به على التنزيه المطلق في بصيرتك. وقال عن باب الحقيقة ولم يقل عن الحقيقة لأنها واحدة وكل شيء بابها. فإذا كشف لك عن كل شيء الذي هو بابها عرفت الكثرة في الوحدة فيبقى عليك أن تعرف الوحدة في الكثرة **(فتفنى)** أي: تضمحل عنك بالكلية **(إرادتك)** لله تعالى ولغيره فتبقى بلا إرادة لشيء مطلقاً لا تريد الله تعالى ولا تريد غيره ولا تريد خيراً ولا شراً ولا تريد إرادة ولا ترك إرادة **(فيكشف)** الله تعالى **(لك)** حينئذ عن صفة **(الوحدانية)** التي هو موصوف بها على حد ما هو موصوف بها في حقيقة الأمر لا على حسب ما كنت تعلمه أنت من معنى الوحدانية في حقه تعالى من قبل **(فتحققت به)** تعالى لا بنفسك إذ لا نفس لك حينئذ. وما كان بالله تعالى كان يقيناً وما كان بنفسك كان ظناً لا يقيناً، فجميع ما تعلمه من قبل ظن واليقين هو ما تعلمه الآن بالله تعالى فلهذا كان تحققاً **(أنه)** أي الله تعالى **(هو)** الموجود وحده **(بلا أنت)** أي: أنت معدوم لا وجود لك **(معه)** سبحانه وتعالى الآن ولا وجدت معه من قبل ولا توجد معه من

إن سلمت إليه قربك، وإن نازعته أبعدك، إن تقربت إليه به قربك، وإن تقربت إليه بك أبعدك، إن طلبته لك كلفك، وإن طلبته له دللك، قربك

بعد. وكذلك كل ما هو سواه سبحانه وتعالى عن جميع الأغيار لا وجد ولا يوجد ولا هو موجود معه تعالى أبداً وإنما هو تعالى موجود وحده مع كل شيء ولولا معيته لكل شيء ما كان في عالمه شيء مطلقاً فالأشياء موجودة في عالمها بالنسبة إليها في نفسها ولا وجود لها بالنسبة إلى الله تعالى البتة كما أن الله تعالى موجود في أزله على ما هو عليه لا في عالم الأشياء فمن أراده تعالى خرج عن عالم الأشياء إليه تعالى فكان هو تعالى موجوداً لا غيره معه في أزله مطلقاً.

(**إن سلمت**) أيها المريد أمرك في الباطن والظاهر (**إليه**) سبحانه وتعالى فلم تطلبه تعالى منه ولا من غيره ولا تركت طلبه أيضاً منه ولا من غيره بل كنت مع ما يخلق فيك منه تعالى من طلب أو ترك طلب مستسلماً إليه على كل حال (**قربك**) إليه حينئذ وأدناك منه وأجلسك على بساط الانبساط معه لأنك سلمت إليه نفسك فسلم إليك نفسه (**وإن نازعته**) أمراً مطلقاً في الباطن أو في الظاهر وطلبته منه تعالى أو من غيره أو تركت طلبه منه تعالى أو من غيره ولم تكن معه على حسب ما وضعه فيك من الطلب أو الترك (**أبعدك**) عنه تعالى وطردك عن جنابه العظيم بما وضعه فيك من منازعة نفسك له سبحانه وتعالى كما طرد قبلك إبليس اللعين بسبب منازعته لله تعالى في تفضيل آدم عليه السلام وذلك لأنك لم تسلم إليه فلم يسلم إليك فنازعته فنازعك والجروح قصاص (**إن تقربت إليه**) أي: طلبت القرب إليه تعالى (**به**) أي: بقدرته المتوجهة على إيجاد طلبك له تعالى فيك من غير واسطة إرادة نفسك لذلك (**قربك**) حينئذ إليه سبحانه وتعالى لأنك لم تطلبه بغيره تعالى فلم يوجد فيك ما يقتضي بعدك عنه وهو إرادة نفسك (**وإن تقربت إليه**) سبحانه وتعالى (**بك**) أي: بسبب إرادة نفسك لذلك القرب وحسنه عندك وكماله في نظرك (**أبعدك**) سبحانه وتعالى حينئذ عن جنابه العظيم وطردك عن شهود وجهه الكريم لأنك طلبته بغيره فحجبك عنه بعين ما طلبته به، وهو الغير في زعمك ولا غير في الحقيقة فزعمك حجابك (**إن طلبته**) سبحانه وتعالى (**لك**) أي: لأجل نفسك بأن قصدت في طلبك له حصول شيء من الحظوظ الدنيوية أو الأخروية (**كلفك**) أي: أوقعك في الكلفة وهي المشقة والتعب بأن أقامك

في تكاليف الشريعة أمراً ونهياً وذلك لأنك موجود عند نفسك تطلب لها ما يتم به غرضها من الراحات فيلزمك أن تقتحم بها حومة ما كلفت به مما لا يلائم غرضها من المتاعب ليقوم بعدله الميزان وتتساوى منه الكفتان ـ وكما تدين تدان ـ فحيث ما طلبت منه لك طلب هو أيضاً منك له (وإن طلبته) عز وجل (له) أي: لأجله لا لأجل نفسك بأن قصدت في طلبك له ظهور ما خلقه فيك من طلبك له على حسب مراده بذلك من إظهار عبوديتك والكشف عن ربوبيته لك بذلك الإظهار وغيره من الأسرار (دللك) أي: جعلك في مقام الإدلال عليه بسبب رفع الحجاب بينك وبينه وهو نفسك. فلما زالت نفسك زال عنك كل ما كنت تتوهم أنه غير فصرت تتدلل به عليه بعدما كنت تتذلل بنفسك بين يديه ويزال عنك تعب التكاليف براحة الدلال وتخلصت من مرارة الهجر والجفاء بحلاوة الوصال (قربك) إليه تعالى كما قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [قٓ: ١٦] إنما هو (خروجك) أي: اضمحلالك وزوالك بالكلية (عنك) أي: عن نفسك بحيث يخلق الله تعالى فيك رؤية أنك قائم به تعالى إيجاداً وإمداداً وعملاً واعتقاداً (وبعدك) عنه عز وجل كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] إنما هو (وقوفك) أيها العبد السائر في مسافات الأطوار على نجائب الإرادة الإلهية والاقتدار من غير شعور منك بهذا السير لأنك واقف مع الغير ولا غير وإنما زعمك أوقعك في هذا الضير (معك) أي: مع نفسك متحققاً بوجودها مع وجود معبودها ومشتغلاً بأحوالها عن أفعال الله تعالى المنسوبة لها.

واعلم أن الحركة الواحدة للشيء المعدوم إذا ورد عليه أمر الله تعالى بالوجود على وجه لا يعلمه إلا الله تعالى لا بد أن تقتضي صورة خلقية تسمى شيئاً. فإذا وردت تلك الحركة الواحدة على قلب العبد الغافل واقتضت فعل شيء أو تركه اقتضت صورة خلقية اشتغلت بها تلك الحركة الواحدة عن نفسها فإذا أعرضت عما اقتضته والتفتت إلى نفسها لتعلم ما هي في نفسها اقتضت صورة أخرى غير الأولى وهي تصوير نفسها وهكذا لا تزال كلما أعرضت عن صورة اقتضت صورة أخرى غير الأولى فهي مشتغلة بما تقضيه من الصور فلا يمكنها أن تعرف نفسها ما هي من حيث هي حركة واحدة عن أمر الله تعالى أبداً، بل كل صورة اقتضتها هي صورتها في طور من أطوارها، وشأن من شؤونها، وهي لا تعرف ذلك وتعتقد في تلك

إن جئتَ بلا أنت قبلك، وإن جئت بك حجبك.

العاملُ لا يكادُ يخلص من رؤية عملِهِ، فكنْ من قبيل المنةِ

الصورة كلها المغايرة لها ولا مغايرة، بل عين تلك الحركة الواحدة عين تلك الصورة فإذا عرفت ما اقتضته من الصورة حقيقة المعرفة عرفت نفسها وإذا عرفت نفسها عرفت ربها، فهي محجوبة عن معرفة نفسها بصورها التي تتصور لنفسها بها كما احتجب الرب بالصور التي يصورها لنفسه وتلك الحركة المذكورة هي حقيقة الإنسان الذي هو آدم عليه السلام وما زاد عليها في الإنسان من الجمادية والنباتية والحيوانية صور لها تحجبها عنها وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله خلق آدم على صورته» وفي رواية على صورة الرحمن. وخص آدم عليه السلام لوجود الحقيقة الإنسانية فيه دون غيره من جميع العالم، وقد عرفناك طريق الله تعالى.

فاعرج على هذا المعراج واحذر من الاعوجاج **(إن جئت)** أيها المريد إلى حضرة الله تعالى بأن أقبلت على الاشتغال به تعالى في عين اشتغالك بكل شيء وأعرضت عن كل شيء **(بلا أنت)** أي: بدون نفسك وهي الحركة الواحدة الصادرة عن أمر الله تعالى كما ذكرنا. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر: ٥٠] أي: حركة واحدة، ثم قال تعالى: كلمح البصر، فشبهها بما تصورت به من لمح البصر الذي هو صورتها في الحس. وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] فالروح واحدة والنفوس كثيرة. والنفوس الكثيرة هي تلك الروح الواحدة ولا يصدر عن الواحد إلا واحد، فالأمر واحد والروح واحدة ووجوه الروح كثيرة وهي النفوس الكثيرة وهذا طريق آخر قد عرفناك به إن كنت من أهله. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم **(قبلك)** فأقبل عليك حيث أقبلت عليه وتركت نفسك **(وإن جئت)** إلى حضرته تعالى **(بك)** أي: بنفسك واقتضت تلك الحركة الواحدة منك صورة توجهك إليه واشتغلت بتلك الصورة الواحدة وغفلت عن معرفة نفسك **(حجبك)** عنه تعالى وعن شهوده في كل شيء بعين ما اشتغلت به من صورة توجهك إليه فلم يقبل عليك لأنك ما تركت نفسك وأقبلت عليه فنفسك هي عين حجابك الذي حجبك به عنه.

(العامل) لله تعالى على مقتضى أمره ونهيه مع الإخلاص والخشوع. ويلزم من

ولا تكُن من قبيل العمل، إن عرفته سكنت، وإن جهلته تحركتْ، فالمراد أنْ

العالم أن يكون عالماً بما يعمل به من الشرائع والأحكام وإلا فليس بعامل لأن عمله باطل بلا علم كما تقدم أن العلم طريق العمل (لا يكاد يخلص) أي: يسلم (من رؤية) أي: ملاحظة (عمله) واعتباره في نظره وإن أجهد نفسه في عدم ذلك لأن من ضرورة العامل أن يشتغل بعمله ليكشف عنه بعلمه ويطلع على صحيحه وفاسده للخروج من عهدة تكليفه به فلا يكاد يسلم من رؤيته والالتفات إليه على كل حال. وإذا كان الأمر كذلك (فكن) يا أيها المريد للوصول إلى أوج المحصول في عملك الذي كلفت به فعلاً وتركاً ناظراً ذلك فيك (من قبيل المنة) من الله تعالى عليك يخلق ذلك لك من غير استحقاق فيك له، بل محض فضل وإحسان من الحق تعالى عليك ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]. (ولا تكن) ناظراً ذلك فيك (من قبيل العمل) الصادر منك لله تعالى تسلم حينئذ، وتتخلص من رؤية عملك فإن أهل الله تعالى لا عمل لهم وإنما العمل لله تعالى فيهم وهم أهل منة من الله تعالى حيث خلق الأعمال ونسبها إليهم، والعمل في طريق أهل الحجاب والغفلة لا في طريقهم بل طريقهم محبة فقط كما ذكرناه فيما سبق. وأما قوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥] فهو خطاب لأهل الغفلة والحجاب على حسب ما يعتقدونه من أن العمل منهم. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ١٠٥] وأما قوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] فهو خطاب لأهل الخصوص بجميع ما خوطب به أهل العموم ثم صرف حالة أهل العموم عن أهل الخصوص ليتميزوا عنهم بعد أن شاركوهم وقد حصل التمييز بقوله شكراً والشكر رؤية المنعم المنان، فالعمل في الصورة والنعمة والمنة في الحقيقة والعامل مشرك شركاً خفياً عنه لرؤيته أنه عامل والعامل غير المعمول له، وهما غير العمل فهي ثلاثة ولا توحيد مع التثليث كما سبق ذكره وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢] وأطلق الشرك فشمل الخفي والجلي. وفي حديث: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله»[1] أي: بسبب عمله الموجب للشرك الخفي قالوا ولا أنت يا رسول الله من قبيل قوله تعالى للنبي

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢/ ١٩٧).

السلام: لئن أشركت ليحبطن عملك فسماه عملاً مشاكلة للمشركين في أعمالهم لأن المراد تعريفهم بذلك. قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته، وتقدير الكلام فيصرف عني رؤية العمل ويريني منته عليّ وكيف يوجد مع الشرك عمل والشرك محبط للعمل بنص الآية (إن عرفته) أيها العبد السالك في طريقه أي عرفت الله تعالى بتعريفه إياك وتحققته بتحقيقه (سكنت) إليه تعالى يعني: اطمأنت جوارحك الباطنة والظاهرة وسلمت من التحرك والاضطراب في أحوال الدنيا والآخرة. ولا يبقى لك حركة ولا سكون وترجع إلى عدمك الأصلي في ظهور وجوده المصون. فقوله سكنت أي: زالت حركتك الأمرية المتحرك بها كل متحرك وساكن في عالم الخلق وإذا زالت حركتك الأمرية رجعت إلى سكونك الأصلي فانعدمت (وإن جهلته) أي: الله سبحانه وتعالى بأن لم يتعرف إليك فلم تعرفه (تحركت) إلى معرفته بنفسك فاحتجبت بها عنه فوقعت في الزيغ والضلال واضطربت جوارحك بقضائه الأزلي ولم ترض بأحكام الأقدار ووقع قلبك في مهالك الأتعاب والأكدار. ثم أجمل ما فصله من قبل بقوله (فالمراد) أي: مراد الله تعالى منك (أن يكون) هو تعالى وحده موجوداً في علمك الحادث كما هو موجود في علمه القديم (ولا تكون) أنت ولا غيرك أيضاً موجوداً معه سبحانه وتعالى في الوجود. قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩] فلا إله إلا الله لا موجود إلا الله ولكن يحتاج هذا المعنى إلى علم ولهذا قال: فاعلم، ثم أمر بالاستغفار بعد ذلك من الذنب. وليس إلا ذنب دعوى الوجود معه تعالى كما قال القائل: وجودك ذنب لا يقاس به ذنب، فمراده أن يكون هو ولا تكون أنت معه ثم ابتلاك وامتحنك بما كلفك به من الأمر والنهي كما قال تعالى: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤] يعني: هل تعملون بأنفسكم أو تعملون بنا. فإن شغلك بتكليفه لك أمراً ونهياً عن مشاهدته. وأوجب دعواك الوجود معه وقيامك بنفسك هلكت عن بينة وإلا حييت عن بينة كما قال تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] ثم قال رضي الله عنه:

العوامُ أعمالهُم متهمات، والخواصُ أعمالهم قربات، وخواصُ الخواص أعمالهم درجات، كُلما اجتنبتَ هواكَ قوي إيمانك، وكلما اجتنبتَ

(**العوام**) من المسلمين وهم الموجودن في زعمهم مع الله تعالى القائمون بنفوسهم في الإيمان بالله تعالى وبما جاءت به رسله عليهم السلام الممتثلون بنفوسهم أوامر الله تعالى المجتنبون بنفوسهم عن نواهيه (**أعمالهم**) كلها في بواطنهم وظواهرهم فعلاً وتركاً (**متهمات**) في شرع الله تعالى لا يعلم أحد في صحتها على القطع أو بطلانها لأنها مبنية كلها في العوام على الشرك الخفي والشرك الخفي غير ظاهر في أحد مخصوص بعينه. وليس ثم كلمة تترجم عنه متى سمعت من أحد حكم عليه به. وكلما يفهم منه ذلك يجب تأويله شرعاً إذا صدر ممن يدعي الإسلام كالعوام فتبقى التهمة في أعمالهم حتى يلقوا الله تعالى فيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون.

ومتى ظهر من أحدكم البراءة من الشرك الخفي فليس من العوام وإلا فهو عامي متهم في العمل والاعتقاد (**والخواص**) وهم الموجودون بالله تعالى لا بأنفسهم القائمون بالله تعالى لا بنفوسهم في الإيمان والامتثال والاجتناب (**أعمالهم**) كلها التي يعملونها باطناً وظاهراً فعلاً وتركاً (**قربات**) يتقربون بها إلى الله تعالى فكلما عملوا عملاً من الطاعات عملوه بالله تعالى لا بنفوسهم فرفعهم ذلك العمل عن حضيض البعد عن الله تعالى إلى أوج القرب إليه تعالى كما ورد في الحديث القدسي: لا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه (**وخواص الخواص**) هم العارفون بالله تعالى وبنفوسهم في تجلياته القائمون بنفوسهم في الإيمان والامتثال والاجتناب ظهوراً من ظهوراته سبحانه رجعوا من حالة الخواص التي تبرؤوا فيها من نفوسهم إلى حالة العوام التي قاموا فيها بنفوسهم. كما قيل أن النهاية رجوع إلى البداية. ولكن قاموا بنفوسهم في ظهور ربهم بهم ظهور محكوم بحكم وتصوروا به تصور مفهوم بفهم.

فحالة العوام قاصرة عن حالتهم. وإن وافقوهم في الدائرة الصغرى فقد فارقوهم في الدائرة الكبرى فجاء كلام الله تعالى عن العوام بطريق الغيبة لغيبته عنهم فقال تعالى ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ ۝٢٠﴾ [البروج: ٢٠] وجاء كلام الله تعالى عن هؤلاء الذين هم خواص الخواص بطريق الخطاب والحضور لحضورهم عنده فقال تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] (**أعمالهم**) التي يخلقها الله تعالى فيهم وهم

ذاتك قوي توحيدك.

الخلقُ حجابٌ، وأنتَ حجابٌ، والحقُ ليس بمحجوبٍ، ومحتجبٌ

غائبون في شهود الله تعالى عن شهودها كلها لهم (درجات) يرتفعون بها من مقام إلى مقام.

فالعوام واقفون والخواص سائرون وخواص الخواص طائرون.

كما نقل عن سهل بن عبدالله رضي الله عنه تعالى أنه أرسل إلى أبي يزيد يخبره أن ههنا رجلاً شرب شربة فلم يظمأ بعدها أبداً. فأرسل إليه أبو يزيد رضي الله تعالى عنه يقول له: إنَّ ههنا رجلاً شرب جميع الكون وفمه فاغر ينتظر الزيادة فالأولى حالة الخواص والثانية حالة خواص الخواص.

ثم أخذ الشيخ رضي الله عنه يختم رسالته بنحو ما ابتدأها به مما تقدم فقال: (كلما اجتنبت) أيها السالك إليه تعالى (هواك) أي: ميلك إلى كل ما سواه تعالى من عادة أو عبادة أو معرفة أو شهود (قوي) أي: ازداد واشتد (إيمانك) به سبحانه وتعالى إذ لا تجد ما تهواه وتميل إليه سواه تعالى فتكثر رغبتك فيه فيزيد تصديقك به حتى يصير يقيناً يطمئن به قلبك وتخشع إليه جوارحك (وكلما اجتنبت ذاتك) أي: نفسك التي هي حجابك عنه تعالى (قوي توحيدك) له سبحانه وتعالى، التوحيد الذوقي الكشفي الحقيقي الذي ليس معه شرك جلي ولا خفي حتى يكمل ظهور توحيده تعالى بك فيصير تعالى هو الموحد ذاته بذاته أزلاً وأبداً.

وأما توحيد بقية الخلق فهو ظهور لم يكمل بسبب غلبة البطون عليه في حضرة من الحضرات الكونية.

(الخلق) مصدر بمعنى المخلوق والمراد به كل ما سوى الله تعالى من ملك ظاهر وملكوت باطن وجبروت كامن (حجاب) لك أيها العبد عن شهود نفسك ولم يقل حجب لتساويهم في صفة الحجابية لأن الواحد منهم يحجب كالكثير (وأنت) أي: نفسك المحجوب أنت عنها بالخلق (حجاب) لك عن شهود الحق تعالى فأنت حينئذ محجوب عن شهود الحق تعالى بمرتبتين من الحجب مرتبة بنفسك ومرتبة بغيرك فنفسك حجابك عن شهود الحق تعالى وغيرك حجابك عن شهود نفسك (والحق) سبحانه وتعالى من حيث هو (ليس بمحجوب) عن أحد مطلقاً إذ لا يحجب إلا العظيم ولا

أعظم من الله تعالى حتى يحجبه وإنما هو موجود ظاهر كمال الظهور ومع ذلك باطن عن غيره كمال البطون فهو ظاهر لا لغيره وباطن لا عن نفسه كما أنه أول بذاته وآخر بخلقه **(ومحتجب)** عز وجل **(عنك)** أي: عن نفسك وعن إدراك عقلك له وحسك **(بك)** أي: بنفسك وبإدراك عقلك لغيره وحسك **(وأنت)** أيها العبد **(محجوب عنك)** أي: عن نفسك فلا تعرف نفسك ما هي ويلزم من ذلك أن لا تعرف ربك لأن من عرف نفسه فقد عرف ربه **(بهم)** أي: بالخلق لأنك تنظر إليهم فتشتغل بمعرفتهم عن معرفة نفسك إذ هم في الحقيقة صور نفسك ظهرت لك في نفسك عند تجلي الحق تعالى عليك في حضرات مختلفة فالمعقولات صور تنطبع في النفس على مقدار استعداد العقل وهو قوة إدراك النفس لذلك الانطباع ولهذا يختلف الإدراك العقلي بحسب الأشخاص الإنسانية الفاضلة والقاصرة، وذلك الانطباع عند تجلي الحق تعالى للنفس بأنواع أسمائه وصفاته في حضرة كونه معلوماً بعد تجليه بالنفس عينها في حضرة كونه عالماً وكذلك المحسوسات كلها صور تنطبع في الحواس الخمس التي هي قوى تلك النفس، وصور تجلياتها من كونها عالمة على الجوارح الخمس التي هي العين والأذن واللسان والأنف وباقي البدن من كونها معلومة وذلك الانطباع من تجلي الحق تعالى للنفس أيضاً بأنواع أسمائه وصفاته في حضرة كونه مشهوداً بعد تجليه في الحواس نفسها في حضرة كونه شاهداً فهو العالم والمعلوم والشاهد والمشهود وكذلك أنت العالم والمعلوم والشاهد والمشهود لأنك نسخة آدمية.

وقد قال عليه السلام: «إن الله خلق آدم على صورته»، وفي رواية على صورة الرحمن وقد أشرنا إلى ما ذكرنا من أن جميع الخلق هم صور نفسك ظهرت لك في نفسك بقولنا من جملة أبيات لنا في ديواننا المسمى **«سحر الأحداق وبث الأشواق»**:

أنا كل الوجود والكائنات ... أنا كل الأرواح كل الذوات

أنا كل العقول بل كل شيء ... في جميع الأزمان والأوقات

ليس كل الوجود إلا أسامي ... والمسمى بكل ذلك ذاتي

والتباسي عليك حيث لباسي ... كل شيء يلقيك في الآفات

والسلام.

(فانفصل) أيها المحجوب عن ربه بنفسه وعن نفسه بغيره **(عنك)** أي: عن نفسك التي حجبتك عن ربك بعد أن تنفصل عن غيرك الذي حجبك عن نفسك **(تشهده)** أي: تشهد ربك سبحانه وتعالى الذي ما غاب ولا يغيب ولا هو غائب أبداً بل هو حاضر ناظر دائماً سرمداً وأنت الذي تغيب عنه وتحضر بين يديه وتعمى عنه وتنظر إليه فإذا شهدته لا يمكنك أن تشهد معه غيره بل تشهده عين غيره بعد ذهاب اسم الغير عنه فالأغيار أسماء لا مسميات لها كما قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣] والأغيار تماثيل لا حقائق لها كما قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام إنه قال لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] وإذا ذهب اسم الغير عنه ذهب رسم الغير أيضاً مع ذهاب اسمه فلا يبقى تصوير ولا تكييف ولا تمثيل ولا تعريف بل الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم الذي قامت به الأشياء وأمسك بقدرته جميع الصور في الأرض والسماء **(والسلام)** أي: الأمان منه تعالى عليك حينئذ من كل مخوف في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] إلى هنا انتهى بنا الكلام في شرح الرسالة الشريفة والصحيفة اللطيفة رسالة قطب العارفين وقدوة الواصلين الشيخ أرسلان الدمشقي قدّس الله سره في الأسرار وجعل الله ضريحه مطلعاً لشموس الأنوار ما تعاقب الليل والنهار.

وقد نظمت قصيدة في ختام هذا الشرح المبارك إن شاء الله تعالى مادحاً بها صاحب هذه الرسالة اللطيفة، رحم الله تعالى روحه الشريفة، ومؤرخاً عام الختام وهي هذه الأبيات:

زدت نوراً يا أرسلان ... وعليك الله منّانُ

حلّةُ التوحيد فيكَ زَهَتْ ... ومن التحقيقِ تيجانُ

يا أبا العرفانِ أنتَ فتىً ... كم بدا لي منكَ عرفانُ

غشومٌ يومَ الوغى بطلٌ ... كاملٌ ما فيه نقصانُ

بين أهل اللّه ذو شرفٍ وعلى الخيراتِ معوانُ
ذو الكراماتِ التي شهرت ذكرها في الناسِ يزدانُ
مِنْ رجالِ الحقِّ همّتُهُ كم بها ترتجُ أركانُ
كلّهُ صدقٌ ومعرفةٌ كلّه دينٌ وإيمانُ
ماتَ حتى في الضريحِ له بالهدى روحٌ وريحانُ
وكان التّربُ وهو بهِ درسٌ يمن وفيهِ قرآنُ
كانَ بالمنشارِ مكتسباً عيشتُهُ في اللّه فينانُ
ينشرُ الأخشابَ وهو على من هداهُ فيهِ تكلانُ
لَمْ يملْ مال به لسوى مع أنَّ المالَ فتّانُ
ثم أنَّ اللّه رامَ بأنْ يعقبُ الأسرار إعلانُ
فأراهُ منه بارقةً غيثها بالكشفِ هتّانُ
عندما المنشارِ كلمَهُ قائلاً ما فيهِ بهتانُ
ما لهذا قد خلقت فدعْ عَنكَ هذا يا أرسلانُ
وغدا المنشارُ منكسراً حيثُ منه بانَ برهانُ
وهو بحرٌ في ولايتهِ كم أمدت منه غدرانُ
صاحبُ الوقتِ الذي اقتبست من سناهُ الإنسُ والجانُ
غوث مثلي كم به كرب فرجت عني وأحزانُ
تنقضي حاجاتُ قاصده سيما إن جاءَ لهفانُ
نورُ حقٍ ما له أبداً عن دمشق الشام كتمانُ
طالما قد كان مشتغلاً بالتقى في اللّه نشوانُ
وله الأسرارُ قد كشفتْ وأزيلتْ عنه أكوانُ
وهو فردٌ في حقائقهِ زانَ منه الحسنَ إحسانُ
حيثُ أبدا في رسالته ما به كم حار إنسانُ

علم توحيد به محيت   عن قلوب القوم أوثانُ

خمرةٌ في الحانِ صافيةٌ   أشرقتْ من نورِها ألحانُ

وجميعُ الكونِ من طربٍ   عند أهل السمعِ ألحانُ

كم بها الأرواح قد سكرت   فانثنت تختال أبدانُ

عقدها بالانتظامِ له   لفظها درٌّ ومرجانُ

كُلما قد جئتُ روضتها   فاحَ وردٌ لي وريحانُ

أطربتْ سمعي بنغمتها   فاستثارتْ فيَّ أشجانُ

واللسانُ اليومَ فاهَ بما   أودعتْهُ فيهِ آذانُ

فلهذا قمتُ أشرحُها   وأنا بالنورِ ملآنُ

ثم جاءَ الشرحُ وهو بها   من غيوثِ الفتحِ ريّانُ

روضُ حسنٍ يانعٍ سرحتْ   فيه بالتاريخِ غزلانُ

فاقتطفْ منه فقد ظهرتْ   مثمراتٌ فيه أغصانُ

كُلُّ لفظٍ من عبارتهِ   لأولي الألبابِ بستانُ

شاده عبد الغني لمن   عقله في الله ولهانُ

وهو بالتوحيدِ مشتغلٌ   ما له عن ذاكَ سلوانُ

شربَ الأكوانَ أجمعُها   وهو صادي القلب ظمآنُ

لا لذي كيف ولا شبه   ربه تبر وعقيانُ

دينهُ تجسيمُ خالقهِ   وهو أعمى القلب حيرانُ

طبعه كالصخرِ ليسَ به   رقةٌ والقلبُ صوانُ

قائمٌ بالنفسِ همته   بطنه والفرجُ حيوانُ

غافلٌ عن ربهِ وإذا   قالَ ربي فهو كفرانُ

حيثُ لا يدري الإله سوى   فوقه والفوق طغيانُ

تقذفَ المعنى عقيدتُه   من كلامي وهو طعانُ

قذف وردٌ يانعٌ نضر   عنه ما شمّتهُ جعلانُ

قُلْ له عني كلامي لم   يدره فكر وإمعانُ

خلْ عنكَ الغي ليس ترى   هذه الأنوار عميانُ

فليكف السوء عن كلمي   إن خلف اللفظ ثعبانُ

ليس قصدي الجاهلونُ وإنْ   مدحوا قولي وإنْ شانوا

وإذا شمسُ الضحى ظهرت   ما لها بالقولِ أبطانُ

ومن اللّه الثوابُ لنا   نرتجي واللّه محسانُ

وعليهِ الأجرُ مكتملاً   رحمةٌ منه وغفرانُ

حيثُ بالتوفيقِ ألهمنا   علم قوم قبلنا كانوا

ثم أبقانا نفصله   بعدهم طبق الذي دانوا

عَنْ أرسلانِ الإله عفا   وعليه منه رضوانُ

جنةُ الفردوسِ بوأه   حوله حورٌ وولدانُ

وسقا قبراً حواه حياً   من عظيم اللطيف هتانُ

دائمُ الأزمانِ ما انعطفت   بالصبا في الروضِ أغصانُ

فهرس المحتويات